

دار اكتب

غُفران

غُفران

دينا شحاتة

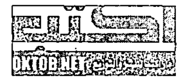
الطبعة الأولى، القاهرة 2018م

غلاف - أحمد فرج

تدقيق لغوي - خالد رجب عواد

رقم الإيداع - 3134 /2018

I.S.B.N- 978-977-488-559- 4



دار اكتب للنشر والتوزيع

العنوان : 12 ش عبد الهادي الطحان، من ش الشيخ منصور، المرج الغربية، القاهرة، مصر

هاتف – 01111947957

بريد إلكتروني: daroktob1@yahoo.com

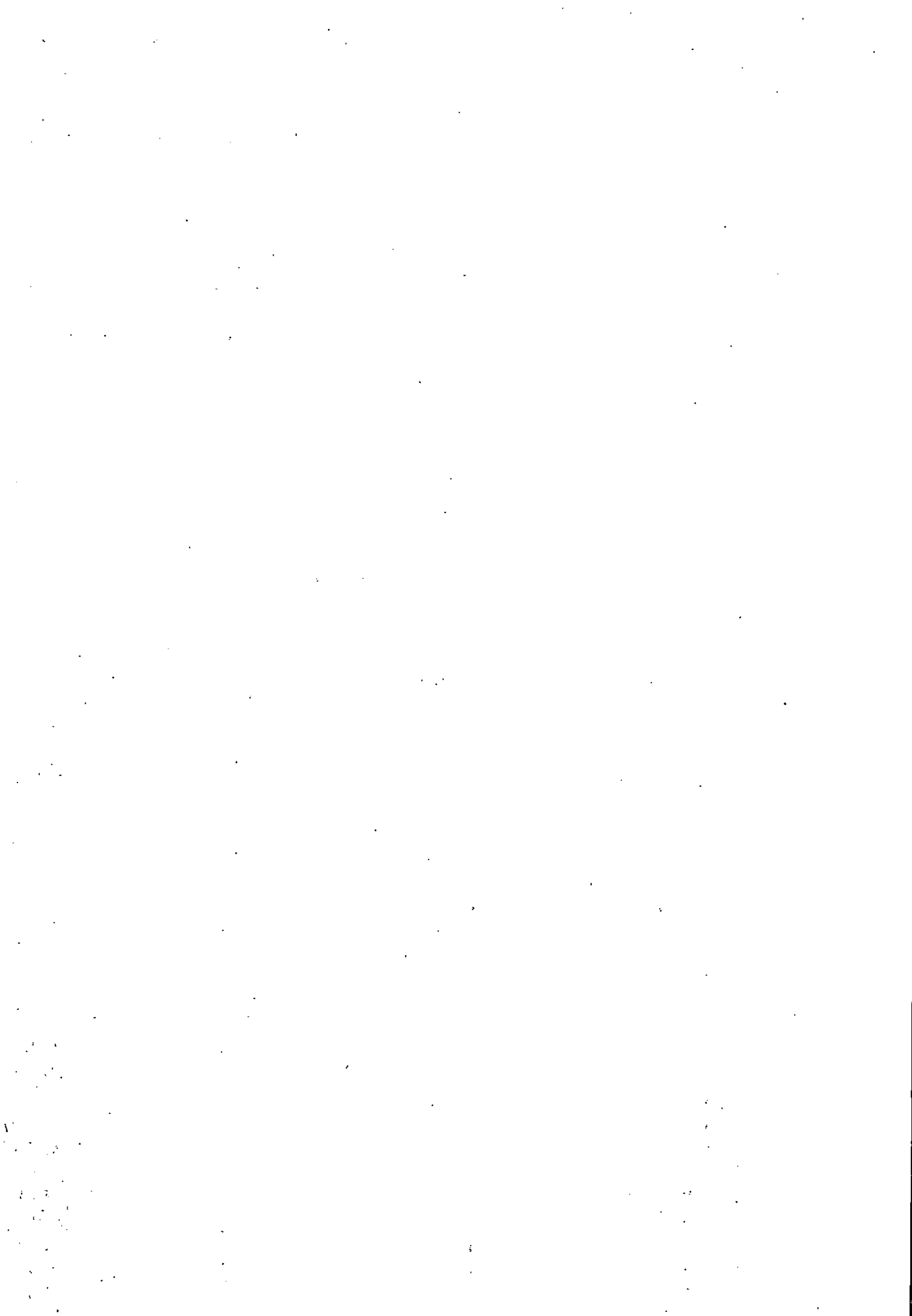
غُفران

رواية

دينا شحاته



دار اكتب للنشر والتوزيع



الإهداء

إلى أمي.. إلى من يجتمع حنان الدنيا عند حدود اسمها.

إلى أبي.. ذلك الرجل الذي جعلني ما أنا عليه الآن.

إلى دعاء وعمر وأحمد، الذين يشاركونني مزاجي المتقلب بشجارات محببة تضيف للحياة مزيدًا من الونس.

إلى نادية صديقتي التي تؤمن بي أكثر مما أؤمن بنفسي.

***

أنصت إلى الناي يحكي حكايته

ومن ألم الفراق يبثُّ شكايته

ومذ قطعت من الغاب

والرجال والنساء لأنيني يبكون

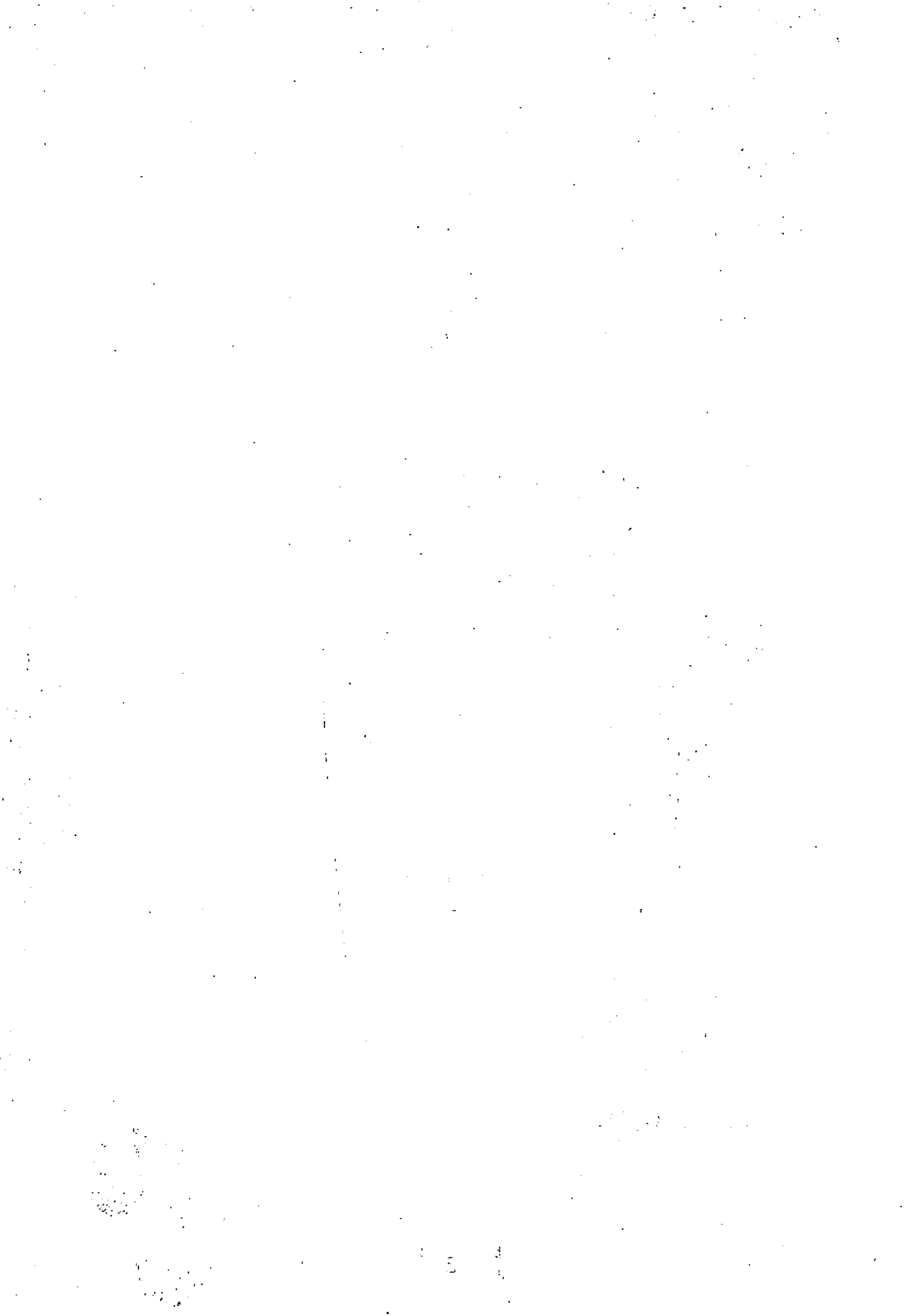
أريد صدرًا مِزقًا مِزقًا برحّه الفراق

لأبوح له بألم الاشتياق

فكل مَن قُطع عن أصله

دائمًا يحنُّ إلى زمان وصله

جلال الدين الرومي



1

لندن، مارس 2003

مالت برأسها مستندة على زجاج السيارة، يُخيَّل لها أن السيارة تقطع الطريق أسرع اليوم، الذكريات تتدفّق في تواتُر مزعج، الرؤية مشوشة لا تعرف هل هذا لوجود الضباب أم أن دموعها تعوقها عن الرؤية بوضوح؟ ومتى كانت رؤيتها واضحة في يوم من الأيام؟!

فكل ما ظنَّت أنه حقيقة اتضح أنه سراب،ابتسمت في تهكُّم عندما تذكَّرت كيف كانت تتباهي وسط زميلاتها بقدرتها على الحكم الجيد على الأشخاص، حتى اعتقادها في نفسها كان خاطئًا.

ما الذي حدث وأوصلها لهذه المرحلة؟

يدور في ذهنها الآن الكثير من الأشياء المتعبة والمتشعبة.

أرهقها السؤال، ومن المؤكد أن الإجابة أكثر إرهاقًا بكثير، فالأسئلة السيئة تطرح إجابات أكثر سوءًا.

يرنُّ جرس هاتفها المحمول فيعفيها من الإجابة عن التساؤلات التي تدور بخلدها الآن، تمسح دموعها بسرعة وتحاول جاهدة أن يبدو صوتها طبيعيًّا فيخرج به حشرجة بسيطة رغمًا عنها:

– أهلًا (علي) كيف حالك؟

ردَّ (علي) بقلق:

– الحمد لله بخير، أين أنتِ الآن، لماذا تركتِ الحفلة مبكرًا هكذا، لقد بحثت عنك طويلًا ولم أجدك.

– لقد شعرت بالتعب قليلًا، ففضلت الذهاب إلى المنزل لأحظى ببعض الراحة.

– حسنًا، اهتمي لأمرك جيدًا، وانتبهي إلى الطريق.

– حسنًا، سوف أفعل ذلك.

– غفران، هل أنتِ بخير حقًّا؟!

تقاوم غفران دموعها بشدة:

– أنا بخير، لا تقلق، إلى اللقاء.

أسرعت (غفران) لغلق هاتفها المحمول وهي تردد في أسًى:

أنا بخير، أي أكذوبة هذه!

أكبر أكذوبة تعلمتها في حياتها كلمة (أنها بخير) كلمة لا تنطبق عليها إطلاقًا، لم تكن هي بخير ولم تكن حياتها يومًا بخير، يشكو الناس من ملل الحياة وأنه لا يوجد بها شيء استثنائي وهي تعبت من الاستثنائية التي تعيشها، طالما تمنت أن تعيش "حياة مملة" على حد قول الآخرين، تنهدت تنهيدة طويلة عسى أن تُخرج ما في صدرها من وجع.

ها هو (علي) يظهر دائمًا في أشد أوقاتها ضيقًا، لطالما تمنت لو عرفته منذ وقت بعيد لكان هناك مساحة بقلبها تستطيع أن تشاركه إياها، أما الآن يظهر (علي) مجددًا ليزيد من عبثية الموقف الذي تعيش فيه.

حملت حقائبها من السيارة. لديها الكثير من الحقائب، فسفرها الطويل أرهق حقائبها تستبدلها دائمًا بأخرى وهي لم تستبدل بعد.. مرهقة هي أكثر من أي شيء آخر.

فتحت باب غرفتها واستلقت على فراشها ودخلت في سبات عميق.

***

استيقظت، ولا تدري كيف ذهبت في سبات عميق بهذا الشكل وهي التي تُعاني الأرق طوال الوقت، كانت مرهقة جدًّا بها تعب لا تدري كُنهه.

ربما هي ذكرياتها التي تطاردها كثيرًا باتت مصدر إرهاقها المستمر، أو ربما ما حدث ليلة البارحة، تساءلت:

هل يمكن أن نموت من الوجع؟!

صار الحزنُ باديًا على ملامحها عندما تذكّرت ما حدث البارحة وكيف أنها التقت بـــ(عمرو) زوجها السابق مصادفة في الحفل الذي أقامته الصحيفة التي تعمل بها وكيف دعاها ليعرفها إلى زوجته (فريدة).

لم تعرف ما الذي أصابها حينها، شعرت أنها فَقَدَت قدرتها على التنفس، توقفت وأحست أن هناك يدًا تسللت بداخلها فنزعت قلبها من مكمنه.

هي، وعمرو انفصلا منذ مدة ليست بالقصيرة، ولكنها لم تَعْتَدْ فَقْدَه حتى الآن، لم تزل تحبه بالرغم من كل ما حدث، هو من تخلى عنها بأنانيته المفرطة وحبه لذاته المبالغ فيه، يحسب أن الكون كله يدور من أجله، وهي لم تعد تتحمل الدوران كثيرًا حوله، لم تعرف أن تتقن هذا الدور.

أصبحت شبحًا بعد فترة من زواجهما، أصبحت لا تكاد تتعرف إلى نفسها.

عندما حاولت أن تبتعد قليلًا عن مجاله المغناطيسي تنافَرا، لم يكن يتوقع منها ذلك، ولم يحاول أن يقربها إليه، هي لم تكن تعنيه كثيرًا، عدم اهتمامه بها قاسٍ وحبها له أكثر قسوة. انفصلا وهي كل يوم تفتقده كثيرًا وتلعنه أكثر، طالما تساءلت عن هذا الجزء في القلب الذي يجعله يحب من يهجره، ما الجزء المسئول عن تلك الجريمة؟ حبها له يغضبها كثيرًا، تساءلت:

ما حظها من الغباء لتفعل هذا؟

لا بد أن حظها وفير، فها هو وبابتسامته التي كانت تحبها كثيرًا فيما سبق يعرفها على (فريدة) زوجته الجديدة.

لم يكن حزنها لأنه تزوج ولكنها أبكاها حالها،أبكاها عُمرًا أضاعته معه، وعمرًا آخر أضاعته في انتظاره، أبكاها أنه كان عليها أن تتظاهر بالبهجة حتى لا تبين له مدى تعاستها في تلك اللحظة، ولأنها تعرف أنه يستطيع كشف كذبها بسهولة لم تتحمل نظراته إليها والتي كانت تحمل مزيدًا من التّشفي وقليلًا من الشفقة.

انسابت دموعها غزيرة، كيف لمصادفة مثل تلك المصادفة أن تعيد لها مخزون سنوات من الذكريات دفعة واحدة، مخزونًا حاولت جاهدة أن تنساه.

تذكّرت أول لقاء لها بعمرو في مقر الصحيفة التي كانت تتدرب بها فور تخرجها في كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة، كان يكبرها بتسع سنوات وكان رجل أعمال ناجحًا وصديقًا مُقرَّبًا لرئيس تحرير الصحيفة التي كانت تتدرب بها آنذاك، تذكرت كم كان لطيفًا معها وقتها، كان يساعدها بعلاقاته العديدة بأن تحصل على لقاءات صحفية مع شخصيات يصعب على متدربة أن تلتقيهم، وسرعان ما اعترفَ لها بحبه وتقدَّم لخطبتها،لم يكن لديها الجرأة لترفض حُبًّا مثل هذا، فعمرو به كل ما تتمناه أي فتاة، لم تطل الخطبة طويلًا وسرعان ما تزوجا وسافرا إلى لندن حيث مقر عمل عمرو الرئيسي هناك، وفي لندن انشغل عمرو كثيرًا بعمله كان يُمضي أيامًا طويلة بعيدًا عن المنزل، كان يتركها وغربتها ويمضي دون اكتراث.

تذكّرتْ يومًا عندما سألت عمرًا ما الذي جذبه إليها وهو بالتأكيد عرف فتيات أجمل وأذكى منها بكثير؟ فاجأها بإجابته عندما قال:

- لأنكِ الفتاة الوحيدة التي لم تُعِرْنِي اهتمامًا.

وقتها ضحكت من جوابه، ولكنها عرفت فيما بعد أنه كان يعني كل حرف يقوله،هو لم يكن يُطيق فكرة ألا يحصل على الاهتمام الذي يظنُّ أنه يستحقه وهي تعاملت مع الأمر بصورة خاطئة، فأغدقت باهتمامها، كانت تفعل كل ما تستطيع وما لا تستطيع من أجل إرضائه، ولكنها كلما زادت من اهتمامها به زاد هو بُعدًا عنها، فَقَدَت

سحرها بالنسبة له، فقدت كونها الفتاة الغامضة الواثقة وأصبحت مجرد ظِلٍّ يؤكد وجوده، ودور الظل لم يعد يرضيه ولا يرضيها، لكن أكثر ما يزعجها في انفصالها عن عمرو أنهما لم يتشاجرا مرةً واحدة طوال زواجهما، كانت علاقتهما تذبُل ببطء شديد حتى جاء يوم إعلان الوفاة لذلك كان يستحيل أن يكون هناك خطٌّ للعودة، عندما حاول بعض أصدقائهما التدخل من أجل إصلاح العلاقة بينهما لم يكن هناك سبب واضح يقال، ولكن كان هناك جبال من التفاصيل الصغيرة جدًّا التي لا تُذكر، وبعد ذلك يتحدث الجميع عن أنها مجرد تفاصيل، أليس تلك التفاصيل قادرة على تدميرنا من العمق؟

أخذت دموع غفران تتساقط غزيرة على وجنيتها فبداخلها الكثير من الوجع لم يُمحَ بعد.

– لا بد أن أسافر.

هكذا حدثّت نفسها.

أخذ الحديث الذي دار بينها وبين رئيس تحرير الصحيفة التي تعمل بها منذ عدة أيام في أنه يُخطِّط في إرسال مُراسلٍ إلى العراق لتغطية الأحداث في بغداد يسيطر على عقلها، فأمريكا كل يوم تتوعد بالحرب على العراق، وطبول الحرب تدقُّ لتعلن عن اقتراب البدء، ووكالات الأنباء العالمية أرسلت بالفعل مراسليها إلى هناك، وتذكرت كيف عرض عليها الأمر وكيف هي رفضت هذا، فما الذي يرمي بها إلى هذا الجحيم!

ربما عليها أن تقبل الآن.

لم يبقَ لديها شيء تخسره، لقد فَقَدَت مَن يعنيها أمرهم حتى انتهى بها الأمر إلى فقدانها عمرًا الذي كانت في انتظار أن يعود إليها نادمًا، يبدو أنه بأفضل حال الآن، تعافى عمرو بطريقة سريعة، تقبَّل الخسارة بشكل جيد إلى درجة جعل مرارة فقدانه أكثر شدة، عندما يتركنا أحدٌ نتمنى أن يبكينا دهرًا، لكن أن يزيحنا سريعًا عن ذاكرته أمر مُخزٍ حقًا، ربما هناك فائدة، فعلى الرغم من وجع الفقدان فإنه يحرر المرء من الكثير من الأشياء، اليأس مريح أحيانًا.

وفي حركة سريعة التقطت سماعة الهاتف واتصلت برئيس تحرير الصحيفة التي تعمل بها:

- صباح الخير مستر بن، لقد عرضت عليَّ من قبل مهمة تغطية حرب العراق، هل ما زال العرض ساريًا؟

- نعم، هل غيرتِ رأيك؟

- نعم، أنا أريد أن أتولى هذه المهمة.

- حسنًا، سأنتظرك غدًا لنتحدث في هذا الأمر.

- حسنًا، سيدي.

***

ها هي قررت السفر لتغطية أحداث بغداد، أمريكا الآن تُهدِّد بغداد على الملأ والقسوة تملأ العالم، أحداث العالم تبدو مأساوية قليلًا أيضًا، ربما السفر يحمل لها جديدًا – وإن كان غير سار- فهو الوحيد الذي يستطيع أن يخرجها مما هي فيه. أو ربما تبدأ مرحلة أخرى من السوء ولكنهم يقولون إن المصائب تمحو بعضها البعض.

***

في صباح اليوم التالي هبَّت غفران لتبديل ملابسها بسرعة والذهاب إلى مقر الصحيفة التي تعمل بها لترتيب هذا مع رئيس التحرير الذي جاء طلبها له على طبق من فضة، فلا أحد كان يريد أن يُلقي بنفسه هناك، فلا يوجد إنسان يائس لهذه الدرجة ليذهب إلى المجهول برغبته.

في طريقها إلى مقر عملها نظرت في مرآة السيارة، دققت في ملامحها وفي مسحة الحزن التي لا تستطيع التخلص منها مهما تحاول، لتترك الكثيرين مما يقابلونها يتساءلون عن ذلك، لا تستطيع أن تخبر أحدًا أنها (خيبات متكررة) كيلا توصف بالسذاجة، فالمؤمن لا يُلدغ من جحر مرتين، وهي تُلدغ من كل جحر عشرات المرات. أينقصها الإيمان أم أنها تثق بالآخرين أكثر مما يجب.

لا يهم فالنتيجة واحدة؟!

هزّت رأسها بقوة لعلها تطرد تلك الأفكار من رأسها، هي الآن في طريقها إلى مقر عملها وتريد التركيز فيما هي مُقبِلة عليه، سافرت هي مراسلةً من قبل في أماكن عديدة من العالم، ولكن لم تسافر لتغطية حروب من قبل، وماذا تفرق تغطية الحروب عن تغطية المؤتمرات، ألسنا نعيش في حروب يومية من مطلع الشمس نستيقظ على نشرات الأخبار التي تحمل السيئ دائمًا ونذهب للعمل لنتشابك معًا بالحروب الكلامية وحروب نفسية يمارسها علينا الآخرون وحروب اجتماعية وحروب من أجل الحصول على مستوى معيشة أفضل، فلتكن الحرب الصريحة إذًا أفضل من الحرب الباردة التي تُمارس علينا يوميًّا.

توقّفت بالسيارة عند مقر الصحيفة التي تقع في قلب لندن، فمنذ أن تركت مصر مع زوجها وجاءت لتعيش في لندن وهي مقيمة بها، لندن من المدن الكئيبة لشخصٍ عاش في شوارع القاهرة الساحرة الساهرة، وتربّى في أحياء القاهرة المليئة بالونس ورائحة البخور يوم الجمعة، والمآذن تصدح بالأذان مُردِّدةً: (الله أكبر) لتؤكد لك ماهية الدنيا وأن الله أكبر من كل شيءٍ وفوق كل شيء وإليه يُرجع كل شيء، كم تودُّ الآن أن تسافر إلى مصر وتجلس في رحاب مسجد الحسين وتبتهل إلى الله وتدعو وتتضرع عسى أن يرتاح قلبها مما أوجعها، تريد أن تسير في شوارع القاهرة غير عابئة بما سيكون، تسمع أصواتًا افتقدها، تسمع اللغة العربية المُحببة التي تحنُّ إليها كثيرًا، لغة الضاد، هل كانت تعشق اللغة العربية من قبل؟ ربما لم تفكر في هذا الأمر، لا نتساءل عمَّا ما نحب حتى نفقده، كم تودُّ هي أن

تذهب إلى بيت والديها وتختبئ في حجرتها التي لم تعرف الأمان سوى داخلها، فمنذ أن خرجت منها وإحساس الأمان في تناقصٍ مُستمر، ولكن لبساطة هذا الحلم لا تستطيع تحقيقه للأسف، فمنذ انفصالها عن (عمرو) هالها ما رأته عند زيارتها للقاهرة، كل شيء تغيَّر منذ رحيلها، بيت عائلتها يعلوه التراب منذ وفاة والديها وإخوتها كلٌّ منهم منشغل بأسرته ومشكلاته الخاصة، وأصدقاؤها صارت لهم ذكرياتهم الخاصة التي تنقصها، لم تستطِع أن تُسايرهم في أحاديثهم، فمعظم حكايتهم تنقصها لتبين لها كم فقدت من العمر بعيدًا عنهم، أحست بالغربة في مصر أشد مما أحست بها في لندن، لم تستطِع أن تقاوم هذا الشعور بالوحدة وسط أهلها، كانت وحيدة كظلٍّ شخصٍ مات، فضلت غربة لندن على غربتها في مصر، على الأقل هناك أسباب تُعزِّي بها نفسها هناك، أما في مصر فلا سبب يُعزي ذلك الشعور المرير باليُتم الذي أحسته، فرجعت إلى لندن الكئيبة، فعملها هناك، ولها أصدقاء أيضًا تعرفت إليهم في خلال فترة إقامتها، أقربهم إليها (علي) هو جزائري ومُصوِّر صحفي يعمل معها في الجريدة نفسها، وبه مسحة الحزن المميزة للعرب عمن سواهم.

قابلت (عليًّا) في الرواق الذي يؤدي لمكتب رئيس التحرير، كان هذا آخر شخص تتمنى أن تراه الآن، لأنها تعرف أن (عليًّا) سيجادلها كثيرًا في قرارها لتغطية أحداث العراق.

استوقفها عليٌّ:

– صباح الخير يا (غفران).

- صباح الخير يا علي.

- لماذا أتيتِ إلى العمل اليوم؟ ألم تخبريني أنك متعبة؟!

- سوف أقابل رئيس التحرير.

علي بابتسامة واسعة:

- هل ستقومين بسبق صحفي؟

غفران بتهكُّم:

- سبق صحفي، ومنذ متى فعلت ذلك حتى أفعله الآن!

علي بجدية:

- حسنًا، ما الأمر؟

غفران وهي تحثُّ الخُطى لمكتب رئيس التحرير:

- سوف أخبرك عندما أنتهي.

طرقت غفران باب مكتب رئيس التحرير الجريدة وفتحت عندما سمعت صوتًا يستأذنها للدخول:

- صباح الخير مستر بن.

- صباح الخير يا غفران،هل ما أخبرتني به بالهاتف قرارك النهائي؟

- نعم هو كذلك، لديَّ حماسة كبيرة لتغطية هذا الموضوع.

- أنا لديَّ تخوُّف نوعًا ما، فأنتِ لم تقومي بتغطية حروب من قبل.

- لقد عملتُ مراسلةً لعدة سنوات في دول عديدة، أما بالنسبة للحرب فأريد أن أتعلَّم هذا.

- لستُ مقتنعًا تمامًا بما تقولينه ولا أعرف صراحة سِرَّ تغير رأيك المفاجئ هذا،ولكن هذا لا يهم، ما يهمني أنك عربية وسوف تساعدك لغتك كثيرًا هناك فلا تحتاجين لمترجم، وأنا لديَّ عجز في المراسلين ولا يوجد أحد متحمس لتغطية حرب أمريكا والعراق، الكل متخوف مما يمكن أن تنتج عنه تلك الحرب فلا أحد يدرك تمامًا ما الذي سوف تنتهي عنده الأمور.

- صحيح غفران، هل أنتِ غير خائفة حقًّا من تغطية حرب بهذا الشكل؟

غفران بتهكم:

- الحرب حرب بجميع أشكالها وميعاد الموت مكتوب لا يهمني كثيرًا أين سأموت.

- حسنًا، جهّزي أوراقك حتى أُبلغك بميعاد السفر.

خرجت غفران من المكتب، ودقات قلبها تكاد تُسمع من الجميع لا تدري ماذا فعلت، أهي تنتقم من عمرو أم تنتقم من نفسها؟ الأمور خرجت عن السيطرة الآن، وعليها أن تفكر في ماذا ستفعل الخطوة

المقبلة، يُباغتها صداع شديد،تمسك برأسها وتجلس على أقرب مكتب يقابلها لتستعيد أنفاسها المتلاحقة، كذبت هي عندما ادَّعت الشجاعة، هي خائفة جدًّا خائفة لدرجة الموت.

رفعت رأسها لتذهب إلى مكتبها فوجدت (عليًّا) يقف قبالتها متسائلًا عما حدث.

أخبرته غفران أنها وافقت على عرض رئيس التحرير في أنها سوف تذهب إلى العراق لتغطية الحرب هناك.

– غفران، هل حدث بعقلك شيء ما؟

– لا.. هذا أفضل بالنسبة لي وبالنسبة إلى مسيرتي المهنية أيضًا ثم إني أريد أنا أفعل شيئًا جديدًا.

ردَّ علي بعصبية:

– ما هو الأفضل بالنسبة لك، أنتِ لم تقومي بتغطية حروب من قبل!

– لهذا أريد أن أكتسب خبرة في هذا المجال، لن أتعلَّم شيئًا جديدًا إذا فعلت ما أفعله على الدوام يجب أن أخاطر قليلًا.

– هل تقولين خبرة؟ ربما أنكِ لم تشاهدي نشرات الأخبار منذ فترة؟!ألا تشاهدين برامج سياسية؟!ألا تعلمين التهديدات التي تُطلقها الإدارة الأمريكية ويطلقها صدام حسين، الجميع في حالة رعب تامٍّ،

لماذا برأيك لم يقبل مراسلون آخرون تلك المهمة؟ الكل خائف أن تحدث مجزرة ثم تأتين أنتِ وبكامل قواكِ العقلية وتتبرعين أن تغطي الحرب على العراق!

– لا تُضخّم الأمور إلى هذا الحد يا علي.. هناك مراسلون عديدون من وكالات صحفية أخرى سوف يذهبون لتغطية تلك الحرب، لست وحدي من سأفعل ذلك. وأنا أريد أن أسافر وأكتسب خبرات جديدة في مجال عملي.

– تكتشفين خبرات جديدة في حرب؟! اذهبي إلى رئيس التحرير الآن واعتذري عن هذه المهمة.

– لن أستطيع ذلك.

– غفران لا بد أن تذهبي إلى رئيس التحرير، وتعتذري عن قبول تلك المهمة.

– لن يفيد الاعتذار الآن، لقد أخبرته بالفعل قبولي تلك المهمة لن أستطيع تغيير قراري، أنا لست طفلة صغيرة .

– ولأنك لستِ طفلة صغيرة يجب أن تقيّمي قراراتك بطريقة أفضل من هذا.

– علي، كُفَّ عن هذا، لقد اتخذتُ قراري بالفعل، أرجوك إذا كنتَ تريد حقًّا مساعدتي أنا أحتاج إلى دعم معنوي الآن.

علي يهمُّ من مقعده مسرعًا:

- سوف أذهب لأُقابل رئيس التحرير.

ثم ينصرف (علي) من المكتب مغلقًا الباب خلفه بقوة.

يدخل (علي) مبتسمًا إلى مكتبه حيث تجلس غفران..

غفران بقلق:

- إذا كنت قابلت رئيس التحرير من أجل أن تجعله يستثنيني من هذه المهمة، أنا سوف أذهب لأؤكد له إصراري على قبولها وعدم تراجعي عن ذلك.

علي:

- لقد قابلتُ بالفعل رئيس التحرير وتحدثت معه بشأن تغطية الحرب.

غفران بعصبية:

- علي، أنت تعلم جيدًا أنني لن أتراجع، لا تضغط عليَّ أرجوك.

- أنا أعلم هذا للأسف، لهذا السبب تراجعت أنا.

غفران تقطب حاجبيها متسائلة وقد خفت حدة صوتها:

- ماذا تعني بأنك تراجعتِ؟!

علي يسحب كرسيًا من أمام غفران ويجلس عليه ويردُّ مبتسمًا:

– تراجعت عن اعتراضي للقرار الذي اتخذته وقررت أن أكون أكثر جنونًا منك وسوف أسافر معك لتغطية الحرب، وليذهب المنطق إلى الجحيم، لقد تحدثتُ مع رئيس التحرير الذي لم يصدق ما الذي يحدث، فقد كان يحاول أن يقنع مصورين صحفيين من أجل هذه التغطية، وفجأة وجد مصورًا مجنونًا يطلب منه هذا الطلب، أظنُّ أنه يحتفل الآن، فهذا يوم حظِّه.

غفران بتأثر:

– ماذا يعني ذلك؟ هل يعني؟

(يختنق صوتها فجأة) ولم تستطِع أن تكمل.

علي بابتسامة واسعة:

– نعم،يعني أنني سوف أسافر معك إلى الجحيم، وليكن ما يكون.

وقتها لم تتمالك غفران دموعها التي ظلت حبيسة، وانسالت دموعها غزيرة.

***

لم يقدر (علي) على ترك غفران وحدها رغم أن ظروفه لم تكن تسمح له بأن يغامر هذه المغامرة غير المحسوبة، فهو ليس في مزاج يسمح له بالسفر، هو لا يحب التورط في أي شيء لا يعرف منتهاه، هو اعتاد حياته، اعتاد وحدته واعتادته، لم يشعر أنه بحاجة إلى أحد منذ أن استوعب درس أن يُترك من قبل حبيبته التي أحبها أكثر من خمس سنوات،ظنّ أنه لن يستطيع مقاومة الحياة بعد ذلك،كان شعوره بضيق الحياة أكبر من أن يوصف، تجربة جعلته يعشق وحدته بألمها أكثر من حب يجلب له التعاسة مدى حياته، ولكنها غفران ماذا كان عليه أن يفعل وهو يعرف جيدًا ما تمر به فقد رآها في حفل الأمس، رآها وهي تبكي منفردة وتنظر خشية أن يراها أحد، هي غفران التي يعرف ما تعانيه منذ البداية، هي غفران التي يحاول جاهدًا أن يقنع نفسه أنها مجرد صديقة ولكنه يعرف جيدا أن الامر يتعدى ذلك بكثير، هو يحبها ويزعم عكس ذلك. هي غفران التي لا يقدر على تركها وحيدة وهي لم تعتد وحدتها بعد،هي غفران أكثر شخص يشبهه منذ سنوات مضت كان وقتها يريد الاستناد إلى أي شيء ولو قشة ولم يجد، ها هو ذا يريد أن يكون سندها فلا يريد أن تتكرر تجربته فيمن يحب مرة أخرى.

فليحدث الأمر كما يحدث لا سبيل للتراجُع، فليستمتع أن تأخذه الحياة حيث تريد، فمنذ زمن لم يسمح لنفسه بذلك.

جلست غفران على أريكتها المفضلة لها في منزلها ممسكة بجهاز التحكم عن بُعد تُقلِّب في القنوات الإخبارية لتعرَّف أحدث ما وصلت إليه أنباء الحرب على العراق، هي تتابع التصريحات الأمريكية من زمن منذ عام 2002 عندما أعلن الرئيس بوش في خطابه أن العراق يشكل محور الشر مع إيران وكوريا الشمالية،فقد قال الرئيس بوش ذلك في وسط عاصفة من التصفيق.

كان هذا الحديث أول إشارة تدل على أن أمريكا سوف تتصرف من الآن فصاعدًا بطريقة وقائية، أي أنها سوف تبادر بضرب دول أخرى قبل أن تمتلك الأخيرة الفرصة لمهاجمتها.

قال بوش ذلك ولكن العراق هو الذي كان في مرمى بصر إدارة بوش.

ومن ثم توالت التصريحات الأمريكية التي تؤكد وجود أسلحة دمار شامل بالعراق.

أخذت غفران تتابع القنوات الإخبارية باهتمام شديد حتى قاطعها جرس الهاتف.. فاذا بها صديقتها (كاميرون) تتصل تطمئن عليها بعد أن رأتها اليوم في مصعد الصحيفة وعيناها متورمتان من أثر البكاء.

أخبرتها غفران بلقائها بعمرو زوجها السابق وفريدة والقرار الذي اتخذته بقبولها العمل مراسلة لتغطية الحرب المنتظرة على العراق.. فطالما كانت كاميرون قريبة منها في كل لحظاتها الفَرِحة والحزينة على

السواء، فهي أول مَن تعرفت إليها منذ قدومها إلى لندن مع عمرو، فعمرو هو من عرفها إلى كاميرون..

يا للحياة! ربما كان هذا الجزء الأفضل الذي فعله عمرو من أجلها، كان يريدها أن تكوّن صداقات حتى لا تشعر بالغربة في لندن، عرفها إلى كاميرون حتى لا تُعاني الوحدة في أثناء ساعات عمله الطويلة وسفرياته المتعددة،هل كان يعرف أنه سوف يأتي يومٌ ويتركها فكان يعدُّ بديلًا عنه؟! حتى لو لم يدرك ذلك فإن وجود كاميرون في حياتها بعد انفصالها عن عمرو ساعدها كثيرًا، فهي من ساندتها في محنتها مع عمرو، لطالما تساءلت غفران: كيف تكون كاميرون التي لا تشترك معها في أي شيء لا الجنسية ولا اللغة ولا الديانة ولا ملامح الوجه ولا الذكريات وتفعل كل هذا من أجلها وعمرو الذي كانت تشاركه في كل شيء حتى روحها ينفصل عنها بهذه السهولة! من قال إن هذه الأمور بتلك الأهمية، وحدها الإنسانية هي المعيار الرئيسي المشترك بينا، نظن أن كل ما لا نعرفه غريب عنا ولا ندرك أن كل من لا يشعر بنا هو أكثر غربة.

حاولت كاميرون بأن تقنعها بالعدول عن فكرة السفر إلى العراق فتجربة تغطية الحروب جديدة عليها وهي ليست مؤهلة بدرجة كافية لها، ولكنها ظلت تردد لكاميرون بصوت مرتفع أنها متحمسة لخوض تجربة جديدة من هذا النوع، عندما تكذب تتكلم بصوت مرتفع

وكأنها تحاول أن تسكت أي صوت بداخلها يدرك أن ذلك محض ادِّعاء، كاميرون تعرف يقينًا أنها تقصد عكس ذلك فمن الصعب أن تكذب على إنسان يعرفك جيدًا، ولكنها تعرف أيضًا أن قولها يحمل بعض الحقيقة، إنها تجربة جديدة والجديد يُنسي القديم نوعًا ما خاصة عندما يكون القديم سيئًا.

أنهت غفران حديثها مع كاميرون بعد أن أكدت لها أنها بخير وبعد أن وعدتها أن تبلغها بموعد سفرها.

***

مع مطلع الشمس كل صباح يبدأ الجميع باستئناف الحياة من جديد، يبدأ الأطفال بالذهاب إلى مدارسهم ويبدأ الجميع بممارسة أعمالهم.

ومع بداية هذا الصباح استيقظت غفران وهي تعرف أن هذا الصباح حد فاصل لما قبله،فحياتها بعده سوف تختلف كثيرًا عما سبق، شعرت بذلك عند وفاة والدها وعند انفصالها من عمرو واليوم، وإن كان المشترك في هذه المواقف أن شعورها بالأمان يسلب منها فجأة، الغريب أن وفاة والدها وانفصالها من عمرو مواقف حدثت رغمًا عنها،ولكنها اليوم تفقد شعورها بالأمان المفقود أساسًا بكامل إرادتها، ربما هذا ما يزعجها،حاولت أن تتخلص من هذا الهاجس الذي يسيطر عليها، فذهبت إلى المطبخ لتعد كوبًا من القهوة.

ابتسمت ربما وجود القهوة في الحياة يخفف الكثير من المتاعب، أخذت ترتشف كوب القهوة على مَهَلٍ هاربة من كل الأفكار التي تعصف بذهنها،تشعر أن القهوة تتسرب في شرايينها فكرت أن القهوة لو تهيئت في صورة شخص لارتبطت به على الفور.

فتحت جهاز الكمبيوتر الخاص بها لتكمل البحث عن معلومات أكثر تساعدها في عملها لتغطيتها حرب العراق.

الكونغرس الأمريكي أقر مشروع قانون يعطي بوش سلطة استخدام القوة في العراق كلما رأى ذلك ضروريًّا ومناسبًا، والأمم المتحدة تُصادِق على القرار رقم 1441 الذي يحذر العراق من عواقب وخيمة إذا لم يلتزم صدام حسين العقوبات ويوافق على التعاون مع فرق تفتيش الأسلحة وعلى الرغم من أن العراق قدم تقريرًا يعرض فيه برامج تسلحه، فقد بدأ مفتشو الأسلحة التابعون للأمم المتحدة والذين يرأسهم السويدي هانز بلكيس في تفحص القواعد العسكرية العراقية والمجمعات الرئاسية، لم يجد بليكس شيئًا وقال مخاطبًا مجلس الأمن عام 2003 إن العراق قد تعاون "تعاونًا جيدًا" في مجال السماح لفرق التفتيش بالاطلاع على المواقع، إلا أنه يجب عليه إبداء تعاون مماثل فيما يخصُّ الإدلاء بالمعلومات المطلوبة،وها هو كولن باول رئيس الخارجية الأمريكي يحاول كسب الدعم من أجل إصدار قرار ثانٍ من الأمم المتحدة يجيز استخدام القوة ضد صدام، من المؤكد أن الإدارة

الأمريكية قد عزمت على شن الحرب على العراق ولم يبقَ إلا أيام وتبدأ الحرب.

أصابتها قشعريرة فجأة عندما انتهت لتلك النقطة..

الحرب..كيف يمكن للحرب أن تنتج حالًا أفضل؟ كيف تقتنع أمريكا أنها سوف تفتح للعراق أفاقًا الديمقراطية بعد أن تُدمر نظام صدام؟ الحرب خراب بالكامل أم يمكن أن تفعلها أمريكا وتعيد إعمار العراق ونظم الديمقراطية كما تدعي؟!

قاطع أفكارها جرس الهاتف فإذا به رئيس التحرير يبلغها بموعد السفر غدًا.

تضع سماعة الهاتف جانبًا ونبضات قلبها تتصارع غدًا، لم تعرف أن الأمور ستحدث بهذه السرعة.

تحاول التقاط أنفاسها وتضغط على أزرار الهاتف بسرعة فتجد (عليًّا) بصوت هادئ يُجيبها:

– أهلًا غفران كنت أنوي مكالمتك حالًا.

ترد غفران بصوت منفعل:

– هل عرفت أننا سوف نسافر غدًا؟

– نعم كنت في مقر الصحيفة اليوم وأبلغني رئيس التحرير بذلك. هل أنت مستعدة؟

ابتسمت بتهكم:

– وما تعريفك للاستعداد؟

– غفران لا تنسي أنكِ من طلبتِ ذلك.

– الله المستعان، هل أنت مستعد؟

– بالطبع.. أنا متحمس جدًّا.

– حسنًا، يكفي أن يكون أحدنا متحمسًا، أراك غدًا بالمطار.

تُنهي غفران المكالمة وتضع سماعة الهاتف وتذهب إلى أريكتها المفضلة لتتقوقع بداخلها، عندما تخاف تنكمش بطريقة غريبة وكأنما تريد أن تجعل نفسها غير مرئية، تريد أن تختفي ويختفي معها خوفها.

قاومت غفران هذا الإحساس المسيطر عليها واتجهت إلى غرفة معيشتها لتحضر حقائبها استعدادًا للسفر، تمتلك هي الكثير من الحقائب، سفرياتها المتعددة ساعدتها على ذلك، ولكنها لم تعرف أي الحقائب تناسب طبيعة الحرب، تظنُّ هي دومًا أن حقائبها مرهقة تمامًا مثلها، تذكرت عندما كانت تعدُّ لعمرو حقائبه، كيف كانت تحرص على ألا تنسى شيئًا، كان اهتمامها المبالغ به يزعجه أحيانًا، ربما كان محقًّا كان يجب أن تهتم أقل لترتاح بعده أكثر، مشكلتها أنها كانت تهتم، لعل الحياة مدينة لها بأن تبعث أحدهم يهتم بها فهذا أكثر إنصافًا، ربما هنا يكمن خوفي (هكذا حدثت نفسها بصوت مرتفع) هي تخاف ألا يفتقدها أحد، فهي لا تجد من تسرب له خوفها، لا تجد

من يطمئنها بأن الأمور سوف تسير على ما يُرام، في كل المحن التي قابلتها دائمًا تبدو قوية متماسكة ربما عليها أن تسمح لضعفها أن يظهر أكثر من هذا، ولكن ليس الآن، انتهت من تحضير حقائبها، ولكن عقلها لم ينتهِ من التفكير المستمر وكالعادة لم تستطع النوم.

***

صعدت غفران إلى الطائرة بجوارها علي، وبينما كانت تربط حزام الأمان استعدادًا للإقلاع، حتى وجدت (علي) يمدُّ يديه مُصافحًا امرأة بالمقعد الخلفي لهما بالطائرة، ولم تكد تلتفت غفران حتى أفزعتها الصدمة، فلا يمكن لهذا أن يحدث لا يمكن، لكن صوت علي قائلًا:

- أهلًا فريدة.

أكّد أن ما تراه حقيقة.

***

2

بغداد، 655 هجريًا

أخذت فاطمة تنظر إلى هذا الفضاء الواسع وتتفكر في حكم الله في أرضه، مَن كان يدري أنها سوف ينتهي بها المطاف إلى هنا وهي تلك الفتاة التي تملأ ضحكتها الأفاق ولا يشغل بالها شيء ولا تكترث لشيء، أن تغير الأقدار مجرى حياتها بهذه الطريقة المقدمات لا توحي أبدًا بما تؤول إليه النهايات.

لم يخطر ببالها قط أن هذا الشاب المهذب الذي رأته يخرج من منزلهم ذات يومٍ فنظرت إليه غير مهتمة وعاودت سقى زهور حديقتها أنه سوف يكون محور حياتها بعد ذلك، فقد عرفت فيما بعد أنه كان منصور الذي ذهب إلى بيت والدها يطلب منه أن يزوجه أصغر بناته فاطمة، وكيف كان والدها مترددًا في الموافقة عليه، فقد

كانَ منصور يعاني عسرًا في الحال، ولكنه وافق لما له من سُمعة طيبة بين الناس أن يهديه درة قلبه وأعز بناته إليه، فقد كانت أحنَّ أبنائه عليه تقضي حوائجه كلها، لا تكلُّ ولا تملُّ، ابتسامة ترتسم على شفتيها في الصباح لتؤكد له أنها أعز ما يملك من بين جميع أملاكه وضياعه التي يمتلكها.

ترتسم على شفتيها ابتسامة عندما تتذكر كيف كان عليها أن تتأقلم في دار زوجها المتواضعة مقارنة بدار أبيها، كيف كان عليها أن تنجز جميع مهام البيت وحدها وهي من تعودت أن يوجد خدم يساعدها على إنجاز الأشياء، تبتسم عندما تتذكر كيف كانت تتذمر كثيرًا وهي الفتاة المُدلَّلة التي لم تعتد هذا النوع من المعيشة،فكان منصور يحاول أن يُسري عنها دائمًا بأن يساعدها عندما ينهي عمله في أعمال البيت،ليخفف عنها الحمل قليلًا،كيف صارت تحبه فتعلَّمت أن تصنع أنواعًا من الطعام رخيص الثمن لتسعد منصور الذي كان يعمل جاهدًا من أجلها، وكيف تشاجرا للمرة الأولى منذ زواجهما عندما اتخذ قراره بأنه سوف ينقل تجارته من مصر إلى بغداد هي لم تسافر في حياتها قط، وعندما تنوي ذلك تسافر إلى آخر بلاد الدنيا، كانت تحلم بأن تسافر إلى مكة لقضاء فريضة الحج يومًا ما ولكن تسافر من أجل تجارة زوجها إلى بغداد، هي لم تسمع عن بغداد من قبل سوى من حكايات جدها رحمه الله الذي سافر إليها ذات مرة

وأخذ يقص عليهم ما رآه هناك، كانت تحب قصصه عنها كثيرًا، ولكن أن تذهب إلى هناك وتقيم هذا شيء لم يكن قط في الحسبان، وهل يعني ذلك أنها سوف تترك حياتها هنا للأبد ومن أجل ماذا من أجل أن تنعم برغد العيش هناك، لو كانت تريد ذلك لما تركت منزل والدها قط، ولما وافقت أن تتزوج بمنصور إن كان رغد العيش هو ما يعنيها، ولكنه منصور الذي يحبها أكثر من نفسه هي تعرف ذلك وتعرف أنه من الصعب عليه العدول عن رأيه، هو عنيد جدًّا كانت تحب هذه الصفة فيه فهي كانت تساعده على النجاح لم تبغض عناده من قبل سوى اليوم الذي قرر فيه ذلك الأمر.

فكرة الغربة كانت مخيفة جدًّا بالنسبة لها، تتذكر كيف بات منصور يقنعها بأن أقاربه هناك سوف يساعدونه كثيرًا في تجارته، وكيف هو يريد لها حياة أفضل مما هي عليه الآن، وأنها كلها أرض الله الواسعة.

وأخذ يصف لها حُسن بغداد وجمالها، دمعت عيناها عندما تذكرت مشهد والديها وأخوتها وكيف كانوا يودعونها في حزن بالغ كيف أحست أن الكون يضيق عليها عندما انتقلت إلى الفضاء الواسع في رحلة شاقة نحو بغداد.

تساءلت طوال الرحلة:

ألم تكن الغربة شاقة على نفسها بما فيه الكفاية لتحمل تبعاتها بهذه القسوة؟!

ما المغرى لها بأن تتخلى عن كل شيء وتتركه وراءها؟ من يعلم إذا استطاعت المجيء إلى مصر ثانية أم أن هذا سيكون آخر لقاء؟ أخبرها منصور أنهما سوف يذهبان إلى مصر ما إن يستقر الحال.

لم يكن واثقًا وهو يقولها لعله يريد أن يجفف دموعها فحسب، وافقت هي رغم الألم لأنها تحبه، فلولا حبها له لما وافقته على ما قرر، فهي تعرف منصور، سوف يعتني بها جيدًا وسيحرص على رضائها، فهو دائمًا يكرمها.

تذكّرت عندما دخلت بغداد وهالها ما رأت لم تتخيل أنها بهذه الدرجة من الجمال.. حكى لها منصور كثيرًا عنها، ولكن الرؤية أبلغ وأوقع أثرًا على النفس، فلم تَرَ لها مثيلًا في دورها ومنازلها دروبها وشعوبها، ومحالها وأسواقها، وسككها وأزقتها ومساجدها وحماماتها، وطرزها وخاناتها،وطيب هوائها وعذوبة مائها، وبرد ظلالها وأفيائها.. هي مدينة ساحرة.

أحبّت بغداد وأحبتها لم تشعر بالغربة فيها، ربما ساعدها على ذلك منصور، فهو نعم الزوج والرفيق.. أنعم الله عليه وأنعمت عليه بغداد بخيرها، فلم تمضِ سنوات قليلة حتى صار من أكبر تجار بغداد.

وفي بغداد رزقها الله بغلامين جميلين "محمد وعبد الرحمن" ليخففا عنها وجع الغربة قليلًا.

لكن هذا الفضاء الواسع ينذر بأن هناك شيئًا سيًا قادمًا منذ أن انتشرت في البلاد أن هناك جيوشًا تُسمى (التتار) على أبواب بغداد والناس يتحدثون عن قوة التتار وجبروتهم كيف تصل إليهم أخبار الأمم، ولا تصل أخبارهم إلى الأمم، وأنهم إذا أرادوا جهة كتموا أمرهم، ونهضوا دفعة واحدة، فلا يعلم بهم أهل بلد حتى يدخلوه.. وأن نساءهم يقاتلن كرجالهم، وخيولهم تحفر الأرض بحوافرها، وتأكل عروق النبات، ولا تحتاج إلى الشعير!لا يحتاجون إلى الإمداد والتموين والمؤن؛ فإنهم يتحركون بالأغنام والبقر والخيول ولا يحتاجون مددًا ويأكلون جميع اللحوم، ويأكلون بني آدم!

سَرَتْ في جسدها قُشعريرة مخيفة الكل يتملكه الرعب حتى أن منصور أخبرها منذ فترة وهو يرتعد أنه كان في حضرة أحد الأمراء وهاله منظره، فسأله عن السبب، فقرأ له رسالة هولاكو التي بعثها له والتي قال فيها:

"نحن جنود الله.. بنا ينتقم ممن عتا وتجبر، وطغى وتكبر، وبأمر الله ما ائتمر..نحن قد أهلكنا البلاد، وأبدنا العباد، وقتلنا النساء والأولاد.

فيا أيها الباقون، أنتم بمن مضى لاحقون، ويا أيها الغافلون، أنتم إليهم تُساقون..مقصدنا الانتقام، وملكنا لا يرام، ونزيلنا لا يُضام..

وعدلنا في ملكنا قد اشتُهر، ومن سيوفنا أين المفر؟

دمرنا البلاد، ويتّمنا الأولاد، وأهلكنا العباد، وأذقناهم العذاب..

وجعلنا عظيمهم صغيرًا، وأميرهم أسيرًا..

تحسبون أنكم منا ناجون أو متخلصون، وعن قليل تعلمون على ما تقدمون.

وقد أعذر من أنذر".

أفاقت فاطمة من خواطرها على صوت ولدها عبد الرحمن، وهو يناديها..

– ماذا تريد الآن؟

– أريدك أن تقصي لي حكاية حتى أنام.

– أنت كبرت الآن يا عبد الرحمن صار عمرك سبع سنوات الحكايات للصغار فقط.

– ولكني أصغر من محمد هذا يعني أنني ما زلت صغيرًا، أليس كذلك؟

تبتسم فاطمة:

– إنك سوف تظل أصغر من محمد طوال عمرك. هل هذا لا يعني أنك لم تكبر بعد؟

- حسنًا، ولكنني لا أعرف أن أنام بغير أن أسمع منك حكاية.. أمي احكي لي عن جدي.. أنتِ تحبينه كثيرًا كيف كان شكله وكيف يبدو. هل كان يحب الأطفال الصغار؟

تبتسم فاطمة:

- جدك هو الأفضل على الإطلاق، كان قويًا كصخرة حنونًا كنهر كريمًا كالسيل. كان يحبني كثيرًا وكان يصطفيني بالحلوى.

الجميع كان يحبه، فقد كان يساعد الآخرين، لا يبخل بشيء يمكن أن يساعدهم به، عندما يفرح يشارك الجميع فرحه وفي حزنه يتروي وحده حتى لا يزعج أحد، حتى عندما مات مات بهدوء كعادته.

وعندما تصل فاطمة إلى هذا الحد تنسال دموعها:

- أمي هل تبكين؟ لا تبكي أرجوك.

تمسح فاطمة دموعها وتحاول أن تبتسم.

ولكنه كان يحب الأطفال كثيرًا،تمنى يومًا أن يراك،لو رآك لأحبك ولأخبرك ألا تزعج والدتك بالحكايات بعد الآن.

يرد بتذمر:

- حسنًا، ولكني لن أنام إذًا.

- نَمِ الآن أمك متعبة، لا تتعبني بالحديث حتى أستطيع أن أقصَّ لك حكايات أخرى غدًا.

يغلق عبد الرحمن عينيه في محاولة منه أن ينام،وتجلس فاطمة بجواره تتساقط دموعها غزيرة، لم تنسَ والدها إطلاقًا، لم تنسَ يوم أن جاءها خبر وفاته ضاقت عليها الأرض بما رحُبت.

لم تستطع حتى أن تحضر جنازته، أتعبها بُعدها جدًّا في هذا اليوم، لم تتعبها غربتها يومًا مثلما أتعبتها يومها، مرضت وقتها طويلًا كان ألمها وقتها أكبر من أن يتحمله جسدها، حاول منصور أن يُسرِّي عنها، ولكن منذ وفاة والدها وهناك جزء منها فُقد ولم يرجع قط.

لم تعد كما كانت من قبل، ربما لو كانت وقتها في مصر وتلقت عزاءه وسط أهلها لكان الأمر أهون على نفسها قليلًا، ولكن الغربة مع الموت تحدث وحشة في القلب لا تُمحى بسهولة.

جففتَ فاطمة دموعها. لا تُريد أن يأتي منصور ويُشاهدها على هذا النحو. فهي لا تُريد أن تثقل عليه خاصة أنه يمر بظروف عصيبة هذه الأيام. فتجارته تأثرت كثيرًا بسبب ترامي الأخبار عن التتار وعن البلاد التي اغتصبوها وكيف فعلوا بأهلها وهل هم في طريقهم حقًّا إلى بغداد.

الكل يتساءل ويترقب ولا أحد يدري متى تحل الكارثة.

تنبّهت فاطمة لصوت خطوات منصور، وهو يدخل إلى البيت مبكرًا على غير عادته ويتضح على ملامحه الوجوم الشديد.

سألته فاطمة بقلق عن السبب.

فأجابها بصوت مختنق:

– يبدو أن الأسوأ يحدث دائمًا.. هل تسمعين عن طائفة الإسماعيلية؟

– لا.. لا أعرف عنها إلا القليل.

– هي طائفة تتمركز في الجبال في غرب فارس وشرق العراق مشهورة بقوة القتال، وبالحصون المنيعة، لا عهد لها ولا أمان.

والإسماعيلية كانوا على خلاف شديد مع الخلافة العباسية، ومع أنهم راسلوا قبل ذلك التتار ليدلوهم على ضعف جلال الدين بن خوارزم قبل مقتله في سنة 629هـ، ولكن هناك ثأر قديم كان بين التتار والإسماعيلية، فقد قتلت الإسماعيلية ابنًا من أبناء جنكيز خان اسمه "جغتاي"، وذلك أيام حملة جنكيزخان على فارس، منذ أكثر من ثلاثين سنة. وهناك أخبار تتردد بأنه تم القضاء على طائفة الإسماعلية بعد مقتل زعيمهم (ركن الدين خورشاه).

تردد فاطمة بصوت مرتعش:

– ماذا يعنى هذا؟ هل هذا يعني..

يكمل منصور بأسف:

– نعم يعني أن التتار في طريقهم إلى بغداد.

3

بغداد، مارس 2003

لم تستطع غفران أن تُصدِّق ما تراه، حتى في أسوأ أحلامها بؤسًا لم تكن لتتوقع هذا، كيف يمكن للكون أن يكون بهذا الضيق ليجمعها هي وفريدة في مكان واحد، كيف يمكن أن تكون تعيسة الحظ إلى هذا الحد، أي جحيم سوف تعيشه، ألم تكن الحرب كافية حتى تجلب لها الدنيا مزيدًا من الأسى!

شعرت غفران بصداع شديد، وضعت يديها على رأسها، تشعر أن رأسها يكاد أن ينفجر.

لاحظ (علي) ما تشعر به غفران فسألها ممازحًا:

- هل شعرتِ بالتعب من الآن؟! إذا فلنُعدْك إلى لندن ونستبدلك بأخرى أكثر قوة.

تمتمت غفران بصوتٍ خافت:

- يا ليت هذا يُجدي.

ثم نظرت إلى علي وسألته باهتمام:

- هل تعرف فريدة؟

- نعم، أعرفها منذ بضع سنوات، هي مراسلة صحفية في وكالة أي بيّ إن الإخبارية، ورئيسة لإحدى منظمات المجتمع المدني المهتمة بحقوق الإنسان، عملنا معًا فترة عندما كنا نعدُّ تقريرًا عن مستوى الوعي بحقوق الإنسان في العالم العربي؟! ألا تتذكرين هذا؟

هزت غفران رأسها بالنفي.

فأكمل علي:

- لقد فاز هذا التقرير بأفضل مقال صحفي منذ ثلاث سنوات.

اتسعت عينا غفران من الدهشة:

- لقد تذكرت، أهذه فريدة سعد الدين؟!

ابتسم علي:

- نعم، هذه هي.

استدارت غفران ناظرة إلى نافذة الطائرة تحاول أن تستوعب ما عرفته الآن، إذا فريدة زوجة عمرو هي نفسها فريدة سعد الدين أنجح صحفية في لندن وأجرؤها، سمعت عنها كثيرًا وتمنت مقابلتها يومًا، لم تكن تتخيل وعمرو يعرفها عليها أنها هي،لا بد أن يكون عمرو سعيدًا الآن فقد استبدلها بأخرى أكثر جمالًا ونجاحًا شهرة، لا بد أنه ندم على العمر الذي أضاعه معها.

دمعت عيناها فحاولت جاهدة ألا تبكي، فعلي بجوارها وفريدة في المقعد الخلفي لها وهي لا تريد أن تبدو ضعيفة الآن، حاولت أن تتماسك لأجلها.

***

انطلق صوت مضيفة الطيران تنبّه الجميع بأن يتأكد من ربط حزام الأمان جيدًا استعدادًا للهبوط، في هذه اللحظة تحديدًا تمسكت غفران بمسند مقعدها في الطائرة وتسارعت أنفاسها بشكل ملحوظ، فهي الآن تعرف أنها أبعد ما يكون لأداء هذه المهمة،وليست على استعداد إطلاقًا لخوض هذه التجربة المخيفة.

لاحظ على التعرق الشديد على وجه غفران.

- هل تخافين من لحظة هبوط الطائرة؟

- في العادة لا أخاف، ولكن اليوم لا أعرف ما الذي يحدث معي.

- غفران.. الجميع قلق وليس هناك أحد يعرف ما الذي يحدث مسبقًا ولكنها الحياة هكذا.. اطمئني سوف تمر المهمة على أفضل حال إن شاء الله، وسوف تتذكرين هذا لاحقًا.

بتوتر ترد غفران:

- لعلها تمرُّ سريعًا.. هذا أهم.

يبتسم علي:

- حسنًا.. أدعو الله أن الحرب تحدث سريعًا إذًا.

تقطب غفران حاجبيها:

- يا إلهي! ندعو بالحرب لننجز مهمتنا!

- هذا هو الحل الوحيد، ولكن هل تتوقعين أن تقوم الحرب سريعًا؟

- نعم.. الكل يتوقع ذلك التصريحات الأمريكية تؤكد هذا. ربما هي أيام قلائل وتنشب الحرب.

- حسنًا.. يجب أن نستعد بخطة لتغطيتها.. هناك شابٌّ عراقي سوف يُرافقنا وينتظرنا بالمطار الآن.

- حسنا فلنقُم بهذا الأمر ولننتهي منه سريعًا.

تنتهي غفران وعي من إنهاء إجراءات السفر فيجدان أمامهما شابًّا في أوائل الثلاثينيات أسمر اللون، طويل القامة، نحيفًا، يبدو عليه ملامح التوتر ممسك بيافطة تحمل اسم الصحيفة التي يعملون بها.

يتقدم علي وغفران ناحية الشاب يصافحه علي ويحدثه:

– أنا علي وهذه غفران.

يصافحهما الشاب.

– وأنا خالد.. تشرفت بمعرفتكما..

ثم يستطرد في عجالة:

– هيا بنا فلنمضِ سريعًا من هنا.

في طريقهما للفندق.. أخذت غفران تتأمل من زجاج السيارة بغداد.. لاحظت كم هي متعبة وجوه الناس هناك، الحياة تبدو شبه عادية رغم أن المتاريس وأكياس الرمل والخنادق منتشرة في شوارع المدينة بشكل كبير، ولكن ملامح الوجوه المرهقة تُعطي لمحة عما يشعر به الناس حتى خالد الذي يرافقهما برغم ابتسامته التي تشعر أنه يبذل مجهودًا في إبرازها لديه وجه متعب، ربما الشعوب العربية جميعها لديها هذا الوجه، ربما هي لعنة لن يستطيع العرب التخلص منها، وربما هي كذلك لأنها عربية،في لندن هذا الإرهاق والحزن الكامن لا يبدو جليًّا في الوجوه..

ما أفضل العودة إلى الوطن حتى ولو في حالة حرب، على الأقل هناك من يشبهها.

أفاقت من خواطرها على صوت خالد:

- لقد وصلنا.

نزلت غفران وعلي من السيارة واتجها إلى صالة الفندق الذي كان يضمُّ أيضًا عددًا من المراسلين والصحفيين من وكالات كثيرة جاؤوا لتغطية الحرب من بينهم فريدة التي يبدو أنها وصلت قبلهم بدقائق.

بعد أن انتهيا من ملأ بياناتهم واستلام غرفهم بالفندق نظر علي إلى خالد وقال له:

- أرجو أن تمر علينا غدًا لترشدنا إلى بعض الأماكن في بغداد.

رد خالد باقتضاب:

- حسنًا، سأنتظركم غدًا في صالة الفندق في العاشرة صباحًا.

ومضى خارجًا.

تنظر غفران إلى خالد وهو يمضي إلى خارج الفندق وتقول لعلي

- يبدو أننا غير مُرحَّب بنا كثيرًا هنا.

علي متسائلًا:

– ما الذي يجعلك تقولين هذا؟

– خالد.. يبدو أنه غير راغب بحضورنا وكذلك حال العراقيين.. هم ليسوا بحاجة لكاميرات تتلهف لتصور الحرب التي تدور في أرضهم.

– هذه الكاميرات هي التي توضح الحقائق للجميع.. هي من ستساندهم.

– هل تظنُّ ذلك؟! فلنذهب إلى غرفنا وليضع كلٌّ منا حقيبته ولنسترح قليلًا ولنتقابل بعد ساعتين في بهو الفندق لنتفق عما سوف نفعله.

– حسنًا، فليكن ذلك.

وما إن دلفت غفران إلى باب الغرفة حتى وضعت حقائبها وانخرطت في بكاء حار، كانت تبكي كل شيء، تبكي خيباها المتكررة وحظها العاثر، تبكي غضبًا، وتبكي حسرة، وتبكي وحدة، وتبكي غربة، وتبكي ضياعًا، وتبكي حنينًا.

أخذت تجفف دموعها وأسندت رأسها إلى أحد حوائط غرفتها وكأنها تريد أن تسمح للصمت المخيم على الغرفة أن يتسلل داخلها عسى أن يهدأ ما في قلبها من جزع.

***

جلس (علي) في بهو الفندق يحتسي فنجانًا من القهوة في انتظار غفران، وأخذ يفكر في حكمة الزمن التي جعلته يأتي إلى بغداد ليغطي حربًا، لو رآه أحد من أصدقائه القدامى في الحي الذي كان يقطن به في القسنطينة لضحك لحاله. فهو الذي كان يكره السياسة والحرب وكان دومًا غير مكترث لها، وكان عندما يختنق من ما وصل إليه حال بلاده يذهب بكاميرته ويختفي ليصور المزيد من المناظر الطبيعية، وعندما كان يتهمه أحد أنه يجب أن يهتم بحال بلده أكثر من ذلك.. كان يردد جملته الشهيرة لأصدقائه:

- لو أني اهتممت أكثر سأسافر.

كانوا يضحكون وقتها لم يصدقه أحد، وحده كان يعلم أنه لن يقدر على الاهتمام، فالاهتمام متعب، ولكن عندما قُتل صديقه عمار في أكتوبر الأسود، فزع لم يتصور أن السياسة يمكن أن تقتل وأن الموت قريب منه إلى هذا الحد، عندها بدأ أن يهتم ومع اهتمامه تبين له سوء الأمور وقبحها لم يعرف سببًا للمذابح التي صارت تحدث بصورة متوالية وبمنتهى الوحشية، لم يكن قادرًا على ابتلاع حقيقة أن هذا يحدث في وطنه، وأنه لا قدرة لأحد على إيقافه.

لم يحتمل أن يصبح كل يوم مهددًا بفراق العديد من أحبائه وأصدقائه، لم يتحمل أن يتساءل يوميًا من سيفقد اليوم أو غدًا، كَرِهَ السياسة والسياسيين، كره الدماء التي تهدر، كره المشاهد الدموية

المتكررة، كره عجزه في أن يوقف أي شيء، عجزه أن يحمي من يحبهم.

عرف أنه لا يملك إلا نفسه فأخذ قراره بالسفر، سافر إلى لندن ومعه كاميرته قرر أن يرى ما يريد أن يراه لا ما يفرض عليه، فأخذ يصور ما يحب، أخذ يصور العالم الذي يريد أن ينتمي له عالمه الخاص به، حتى جاءت غفران فانطبعت صورها لتزين عالمه الخاص فتضفي مزيدًا من الجمال والحزن في آن واحد، صورها التي أخذته من عالمه إلى عالمها، عالمها الذي يبدو أنه مليء بالوجع فها هو انتهى به الحال ليُغطي حربًا وكأن أقدراه تلاحقه بطريقة أو بأخرى، ربما الاستسلام لها هو أفضل الحلول هو اقتنع بهذا، فها هو استسلم لأقدراه التي ظن أنه هرب منها طوال تلك السنوات ولكن يبدو أنه لا مفر.

رأى غفران قادمة نحوه تمشي بخطوات سريعة:

– اعتذر عن التأخير.

– لا تعتذري، لم تتأخري كثيرًا.

– حسنًا.. فلنرَ ما الذي سوف نفعله، أنا أريد أنا نأخذ جولة في شوارع بغداد لنصور بغداد قبيل الحرب ونرى رأي الناس في ذلك، فلنبين للعالم هل أهل العراق سوف يستقبلون الجنود الأمريكيين بالورود والازهار كما يدعون أم ماذا؟ أريد أن أوضح حقيقة ما يشعر به الشعب العراقي للعالم أجمع، لا شيء سيئ أكثر من الكذب والادعاء.

– حسنًا، فلنقم بذلك، أنا اتفقت مع خالد أن يمرَّ علينا في تمام العاشرة صباحًا فهو سوف يساعدنا كثيرًا، واتفقتُ معه أن يعمل معنا طوال فترة إقامتنا في بغداد.فأنت تعرفين أن تغطية الحرب في بغداد لها طبيعة خاصة، فالحكومة العراقية أعلنت أنه مع بداية الحرب سيتم إعلان حظر التجوال وفقط تبقى القوات الخاصة هي التي سوف تتحرك ولديها أوامر بإطلاق النار على كل من يتحرك بالشارع دون تصريح مسبق، فالمراسلون لن يتحركوا كما يريدون، بل سوف يتحركون من خلال حافلات خاصة بوزارة الإعلام ولن يكون لأحد خصوصية التحرك.

– سوف يكون مقر وزارة الإعلام العراقية هي مقرنا، فمعظم الوكالات العالمية اتخذت منه مقرًّا لها، أظنُّ أنه أنه أكثر مكان آمن في بغداد،فلن تستطيع أمريكا أن تقصف مقرًّا متمركزًا فيه معظم وسائل الإعلام العالمية.

– حسنًا، فلنفعل ذلك.

تقاطعهما فريدة مُرحِّبة فيدعوها على للانضمام إليهما.

وللمرة الأولى تنظر غفران لفريدة بهذا القدر من الاهتمام، فريدة يبدو أنها في أواخر العقد الثالث من عمرها، فعلى ما يبدو أنها تكبر غفران ببضع سنوات،قصيرة القوام، جميلة، على وجهها دائمًا ابتسامة لا تُفارقُها تجعلها دائمًا تبدو واثقة، إذًا هذا هو ما كان يبحث عنه عمرو، امرأة مثل فريدة.

(هكذا حدَّثت نفسها غفران) لتجد عليًّا ينظر إليها قائلًا:

– هذه غفران صديقتي في العمل ومراسلة صحفية في نفس الوكالة التي أعمل بها.

تبتسم فريدة:

– لقد تقابلنا من قبل.

يبتسم علي في تعجُّب:

– حقًّا!

تكمل فريدة:

– بالطبع.

ثم تنظر إلى غفران:

– لقد كنت أريد لقاءك منذ فترة والحديث معك.

ردت غفران بتهكم:

– وفيمَ نتحدث؟

– صدقيني لدينا الكثير لنتحدث بشأنه.

لم يستطع علي أن يفهم عما تتحدثان بشأنه، ولكن لاحظ انزعاج غفران، فحاول تغيير مجرى الحديث.

فسأل فريدة باهتمام:

- هل قمتِ بتغطية حروب من قبل؟

- نعم، غطيتُ حروبًا من قبل في أفغانستان والبوسنة والهرسك ولكن هذه الحرب تختلف عما سواها.

- فيمَ الاختلاف؟

- هذه الحرب لا أحد يعرف ما الذي يمكن أن يحدث في حالة اندلاعها وهناك أسلحة فتاكة لن تميز بين هذا وذاك.

ينظر علي إلى غفران التي اتضح التوتر جليًّا عليها.

فقال لها مُداعبًا:

- كاميرون غاضبة منك.

ضربت غفران على رأسها:

- يا إلهي! كيف نسيت أن أخبرها بموعد سفرى، سأحاول أن أحدثها الآنً، سوف أصعد إلى غرفتي الآن، ولنتقابل عند العاشرة صباحا..

ثم نظرت إلى فريدة:

- فلنكمل حديثنا في وقت لاحق.

علي:

- تصبحين على خير. أراكِ غدًا.

تبتسم غفران:

- الله يعلم على ماذا سنصحو.. أراكَ غدًا.

تستأذن فريدة بالذهاب، فيلتفت علي إلى غفران التي يراها وهي تبتعد وهناك سؤال يُلحُّ على خاطره..

أيستطيع حقًّا حمايتها أم تراه لا يقدر على ذلك؟!

***

عند تمام العاشرة صباحًا كان علي وغفران ينتظران خالدًا في بهو الفندق كما اتفقا معه.. جاء خالد في الموعد تمامًا كما وعدهما.

خالد:

- صباح الخير.. أرجو أن تكونا استرحتما جيدًا من تعب السفر فلا راحة لدينا هنا.

تمتمت غفران:

- ولا في أي مكان هناك راحة، لا تقلق.

خالد:

- لست بقلق. نحن اعتدنا ذلك.

يراود غفران شجن لا تدري كُنهه، لا تعرف بالضبط ما الذي يجتاحها فجأة ليجعل هذا الشجن يتدفق سريعًا في أوردهما عندما تنظر إلى خالد، هو لا يتحدث كثيرًا ولكنها تشعر أن مأساة العراق متجسدة في شخصه.

أخذهما خالد في جولة في بغداد بين أحيائها القديمة الكرخ والكرادة والرصافة والصالحية والمنصور.

مرير ما خلّفته سنوات الحصار في العراق، لا يغفله قلب ولا تُخطِئُه عين.

أخذت غفران تسأل بعض العراقيين في الشوارع عن الذي يجول بخاطرهم عن الحرب المرتقبة؟

فقال رجل في منتصف العقد الخامس من عمره:

- إن الحرب مفروضة علينا وليس أمامنا شيء إلا أن نحمل السلاح، وندافع عن أنفسنا وقد أصبح الشعب شبه مسلح الآن، فلا يكاد يخلو بيت من قطعة من السلاح.

وكان بجواره سيدة على ما تبدو أنها زوجته، فسألتها عن تحضيراهم عن الطعام والشراب فقالت:

- لقد وزعت علينا الحكومة تموين ثلاثة أشهر مرتين شهريًا أي يكفينا مدة ستة أشهر.

وعن انقطاع المياه فلقد اشترينا العديد من المياه المعدنية وحفرنا بئرًا في البيت ومعظم العراقيين فعلوا ذلك، وهناك أيضًا بئر في كل حي.. ولقد اشترينا أدوية للحرب..

ثم أكملت بصوت منخفض:

- نحن لم نرد الحرب، ولكن إذا كان لا مفر منها، فلا بد لنا الاستعداد لها على أي حال.

انتقل (علي) بعدسة الكاميرا الخاصة به في أحياء بغداد يحاول أن يُصوِّر صدقًا ما يشعر به العراقيون قبيل الحرب، أفضل ما في الصور أنها لا تنقل الا ما تراه لا تكذب ولا تتجمل ولا تدعي غير الحقيقة، ربما هنا يكمن عشقه لها.

نظرت غفران إلى خالد:

- خالد أريد أن أسألك عن شيء بما أنك عراقي: ما أكثر شيء يخيفك في هذه الحرب؟

ينظر خالد إلى غفران طويلًا ثم يتحدث بهدوء وقد خرج عن صمته قليلًا:

- أنا لستُ خائفًا من القصف على عكس البعض فقد تعودناه منذ وقوع العراق تحت الحصار في أعقاب غزوها للكويت في أغسطس، ما يخيفني أكثر هو العودة إلى انقطاع المياه والكهرباء فنحن

من غير حرب ونصف العراقيين في المدن هم فقط من يحصلون على مياه صالحة للشرب،ويوجد نقص شديد في الكهرباء،فالكهرباء تنقطع يوميًّا، فالبنية التحتية توفر بصعوبة نصف ما نحتاجه لا نحتاج لحرب تقضي عليها.

تقاطعه غفران:

– ولكن التصريحات الأمريكية تؤكد أن لن تمس هذه البنية التحية بسوء.

يضيف علي:

– هناك مادة أيضًا في معاهدة جنيف تنص على تحريم أي اعتداء على محطات الكهرباء مياه الشرب وأنظمة الري في الحروب.

باستنكار يتحدث خالد:

– هل تصدقون حقًّا هذا الهراء، سنرى ماذا يحدث.

يكمل خالد حديثه:

– منذ أغسطس عام 1990 والحصار الذي فرض على العراق وحالها وحالنا يتدهور كل يوم أكثر من سابقه، هناك بطالة مفزعة هناك العديد من حملة الشهادات العليا لا يجدون فرصة عمل وأنا أحاول جاهدًا حتى لا أنضم لقائمة العاطلين،هناك العديد من العراقيين لم يعدوا يحلمون بأن يحصل أبناؤهم على شهادة عليا فلم تعد لهذه

الشهادة قيمة في سوق العمل، حتى وإن أراد ذلك ثمانون بالمائة من مدارس العراق لا تصلح للدراسة. الاقتصاد في حال سيء، الأب لا يقدر على توفير الاحتياجات الاساسية لأسرته والشاب لا يقدر على تكاليف الزواج منذ الحصار وهناك شيء تصدَّع فينا، أخشى أن تصدع الحرب ما تبقى لدينا ربما هذا أكثر ما يخفيني حقًّا.

ينظر علي وغفران إلى خالد بأسى.

يربت (علي) على كتف خالد ويقول له:

- ربما عندما تصل الأمور إلى هذا الضيق يأتِ الفرج سريعًا.

يقول (علي) هذا وهو يعلم أن الفرج لن يأتِ سريعًا أبدًا، فالحرب تعني مزيدًا من الضيق.

يصل علي وغفران إلى الفندق بعد أن اتفقا أن يأتِ خالد إليهما غدًا في نفس الموعد ليجدا هناك الكثير من المراسلين يتحدثون بصوت مرتفع والخوف واضح على ملامحهم..

اتجها نحوهم ليستفسرا عن ما حدث.. وجدا أنه قد بلغ بعض الصحفيين أن مقر وزارة الإعلام ستكون أحد الأهداف الرئيسية للقصف وعليهم إخلاء أجهزتهم وأطباقهم اللاقطة والبحث عن مكان بديل.

ووصلت أخبار أيضًا أن هذا الفندق الذي يقيمون فيها قد يتعرض للقصف.. كانت الأنباء متواترة جعلت هناك حالة من الضبابية فلا أحد يعرف ما الذي ينبغي عليه فعله.

لمح علي فريدة فناداها يسألها عن أحدث ما توصلت إليه من معلومات.

فقالت له:

– لقد أبلغ الأمريكيون محطتنا وقالوا إننا لن نضمن حياة أحد ولن يستطيعوا حمايتنا في هذا المكان، وأبلغتنا المحطة أنه يجب علينا الخروج الآن من بغداد والعودة مع القوات الأمريكية حينما تدخلها.

قطّبت غفران حاجبيها:

– وهل سترحلون؟

تجيب فريدة بهدوء لا يتناسب مع حدة الموقف:

– لا نعرف بعد.. نحن نتناقش الآن فيما ينبغي علينا فعله، نحن حتى الآن لا نعرف كيف نقوم بتغطية الحرب فهناك مصادر أمريكية مؤكدة أنهم سوف يقومون بتدمير وسائل الاتصال كافة في بداية الحرب حتى أننا لن نستطيع استخدام أجهزتنا التي تعمل بالأقمار الصناعية، ولكني لا أريد أن أغطي أحداث الحرب من خلال العدسة الأمريكية، أظنُّ أننا سنخاطر ونبقى في النهاية.

أفزعها هذا الكم الغزير من هذه الأخبار السيئة في آن واحد.

التفتت فوجدت على بجانبها يخبرها:

– إنه قام بالحجز في فندق آخر وسوف ينتقلون إليه الليلة.

ثم ترك على رسالة في الفندق إلى خالد يخبره بمكان إقامتها الجديد.

يجتمع العديد من المراسلين في هذا الفندق أيضًا ويصبح حديث النهار الأول لهما في الفندق خطاب بوش الذي يصدر فيه إنذار يطلب بموجبه من صدام حسين وأولاده مغادرة العراق في غضون ثمانٍ وأربعين ساعة.

وهنا كان الجميع على يقين تام أنها كلها ساعات قليلة وتبدأ الحرب المرتقبة.

وبالفعل بعد هذا بيومين كانت الطائرات الأمريكية تُلقي صواريخ فيُرد عليها بالمضادات الأرضية وترد المآذن بالتكبير.

لقد بدأت أمريكا حربها على العراق. لقد أصبح الأمر حقيقة الآن.

***

4

بغداد، صفر 656 هـ

مضت أعوامًا كثيرة منذ أن جاءت الأخبار عن اجتياح التتار إلى مدينة بخارى مدينة الإمام الجليل البخاري رضي الله عنه وماذا فعلوا بأهلها حيث قتلوا خلقًا لا يعلمهم إلا الله، وأسروا الذرية والنساء وفعلوا الفواحش مع النساء وعذبوا أهلها بأشد أنواع العذاب وكثر الضجيج والبكاء بالبلد من النساء والرجال والأطفال ثم أشعل التتار النار في دور بخاري ومدارسها ومساجدها فاحترقت المدينة حتى صارت خاوية على عروشها، ثم توالت الأخبار بعد ذلك عن اجتياح مدينة سمرقند،وفعل التتار بها كما فعلوا ببخارى وكذلك فعلوا فعلتهم ببلاد فارس وخراسان.

لم يهتم أهل بغداد بهذه الأخبار كثيرًا ظنًّا منهم أن بُعد المسافات بينهم وبين أصحاب تلك المدن سوف تحميهم، كانوا يظنون أنفسهم بمنأى عن ذلك كله لم يتوقعوا أن الدائرة ستدور حتمًا عليهم إذا لم يتنبهوا سريعًا لهذا.

تنبَّه منصور متأخرًا إلى صوت فاطمة التي تناديه من فترة أجابها بصوت منخفض:

- ماذا الآن؟

لاحظت فاطمة شكل الحزن المرتسم على وجه منصور:

- ماذا ينبغي لنا أن نفعل الآن؟

- وما الذي يمكن أن نفعله الآن، هي حتمًا النهاية لقد مات ابن عمي جعفر وهو يحارب مع مجاهد الدين أبيك، وقُتل معظم الجيش لم ينجُ إلا فرقة صغيرة جدًّا مع مجاهد الدين أيبك والتتار يضربون أسوار بغداد الشرقية، وبغداد محاصرة الآن.

- ربما يمكن للخليفة أن يفعل شيئًا؟

- لو كان يستطيع فعل شيء لفعله هو عاجز مثلنا تمامًا.

- لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرًا.

تنهدت فاطمة بأسى، وبينما هم على تلك الحالة يأتي رسول إلى المنصور بخطاب من الخليفة أن يأتيه على الفور..

تجزع فاطمة وتتسارع دقات قلبها وتمتلئ عينيها بالدموع فما الأمر الذي يريد فيه الخليفة زوجها في هذا الظرف السيء.

حاول منصور أن يُهدئها قليلًا، ولكن كل محاولاته باءت بالفشل، هو لا يعرف أيضًا فيما يطلبه الخليفة، ولكنه لن يكون أمرًا حسنًا على أي حال،راوده شعور قوي أنه ربما لن يرى أهل بيته مرة أخرى.

أصابه هذا الشعور بالاختناق حتى أنه لم يقدر على مناداة أبنائه "محمد وعبد الرحمن"، فأمر خادمتهم أم زيد أن تناديهم حتى يودعهم.

جاء محمد وعبد الرحمن مسرعين فزعا ليعرفا ما الأمر ولماذا يرحل أبوهم هكذا فجأة.

أمسك منصور بكتف محمد وأخذ يهزُّه في قوة وقال له:

- أنت رجل هذا البيت عندما أكون غائبًا، احفظ هذا البيت واحمِ والدتك وأخاك جيدًا، اجعل نفسك سندًا يركنان إليه إذا حل بهما التعب، كن هينًا ليِّنًا، أطع والدتك وارع أخاك ولا تتذمر، وإذا حَلَّ بك التعب، استرح قليلًا، ولكن لا تركن إلى الراحة، فالراحة تُعيي الهمة وتفسد القلب.

احفظ هذا الكلام عن ظهر قلب يا ولدي واعمل به حتى أعود.

تساقطت الدموع من عيني محمد فأخذ منصور يضمه إليه.

- أنت وأخوك وأمك أحب الناس إلى قلبي، فلا تفرط في أحبتي واحفظ نفسك واحفظهما.

ثم ضمَّ عبد الرحمن إلى صدره.

- لا تعذب والدتك، وكن مع أخيك سندًا له، داعمًا له، لا تغضبه وإن نهرك يومًا فاعلم أنه لا أحد يحبك أكثر منه، فالتمس له العذر.

أخذ عبد الرحمن يبكي بصوت مسموع:

- أبي، هل سوف تتأخر علينا كثيرًا؟

- لا أدري، ربما يكون ذلك.

ودَّع منصور فاطمة التي كانت تحاول أن تكتم دموعها حتى لا يشاهدها محمد وعبد الرحمن وهي تشاهد منصور يمضي بعيدًا وما زالت كلماته ترنُّ في أذنيها:

- فاطمة يعلم الله أني أحبك، ويعلم أنك كنتِ لي نعم الزوجة الصالحة، لم تشتكي يومًا كنتِ معي دومًا في السراء والضراء وابتسامتك، لا تفارق وجهك، سافرتِ معي واغتربتِ عن أهلك وبلدك، لعل الله يبدلك عن غربتك تلك خيرًا، اعلمي أنه إذا حدث لي شيء ولم أرجع أني أطلب من الله أن تكوني زوجتي في الجنة حيث لا تعب فيها ولا نصب.. أستودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه.

في قصر الخليفة علم منصور ما الأمر الجلل الذي يريده فيه الخليفة في هذا الوقت الحرج الذي تمر به الأمة، عَلمِ أنه مع ضرب التتار المستمر لأسوار بغداد الشرقية ومع انهيار تلك الاسوار تمامًا على أيدى التتار، لجأ الخليفة المستعصم بالله إلى وزيره مؤيد الدين ابن العلقمي الذي أرسله من قبل إلى هولاكو من أجل عمل مفاوضات والتي جاءت بوعود وشروط هولاكو للخليفة العباسي وأما الوعود فكانت:

- إنهاء حالة الحرب بين الدولتين واقامة علاقة سلام دائم.
- يتم الزواج بين ابنة هولاكو بابن الخليفة المستعصم بالله.
- يبقى المستعصم بالله على كرسى الحكم.
- يعطى الأمان لأهل بغداد جميعا.
- على أن تكون الوعود مقابل الشروط الاتية:
- تدمير الحصون العراقية.
- ردم الخنادق.
- تسليم الأسلحة.
- الموافقة على أن يكون حكم بغداد تحت رعاية تترية.

تملّكت الخليفة حيرة كبيرة فهو يعلم أن التتار لا وعود لهم، وإن كانوا صادقين في ذلك، فالشروط مجحفة، كيف عليه أن يسلم بغداد هكذا وهو أيضًا لا يستطيع أن يُجاهد التتار، فكيف ومعظم جيشه هَلك في منطقة الأنبار، أخذ يفكر في الأمر مليًّا هل يرفضه أم يقبله؟ وإن رفضه ما الذي يجب عليه فعله، هو يخشى التتار ولا طاقة له بهم وإن قبله يخشى أن ينقض التتار عهدهم كما فعلوا في البلاد التي اجتاحوها، ولكن هولاكو لم ينتظر طويلًا وأخذ يقذف دار الخلافة ببغداد حتى يجبر الخليفة على سرعة التفكير، فلجأ المستعصم بالله في هذا الظرف الحرج إلى وزيره مؤيد الدين العلقمي الذي أشار عليه أن يخرج لمقابلة هولاكو بنفسه لكي يُجري معه مفاوضات،فذهبت الرسل إلى هولاكو تخبره بقدوم الخليفة، فأمر هولاكو بأن يأتي الخليفة، ولكن ليس وحده بل عليه أن يأتي معه بكبار رجال دولته ووزرائه وفقهاء المدينة وعلماء الإسلام وأمراء الناس والأعيان حتى يحضروا جميعًا المفاوضات وبذلك تصبح المفاوضات ملزمة للجميع.

فجمع الخليفة كبار قومه في وفد مهيب ليذهب إلى هولاكو.

نظر منصور للوفد الذي كان يضم حوالي سبعمائة رجل من أكابر بغداد وهو يخرجون لملاقاة هولاكو من أجل المفاوضات!

تحجرت الدموع في عيني منصور وأخذ يتساءل:

كيف وصل حالهم إلى تلك المهانة؟

ما الذي حدث؟ وما الخطأ الذي ارتكبناه لنبتُلى بهذا البلاء العظيم؟

أركنا للدنيا قليلًا؟

هل خدعتنا الدنيا بزينتها فانشغلنا بها؟

أغرقنا في الترف ونسينا أن هناك عدوًا يتربص بنا؟

وماذا فعلنا عندما علمنا بوجوده؟

ماذا فعلنا عندما أُبيدت بخارى وسمرقند؟

ظننا أننا مانعتنا حصوننا منهم؟

مرضت قلوبنا بحب الدنيا وها نحن نذوق وبال أمرنا، يا الله نستغفرك من جهل عصف بنا وغفلة في القلب أهلكتنا،فاعفُ واصفح صفحًا جميلًا نلقاك به.

أخذ يردد منصور هذا الدعاء مرارًا في سره.

والموكب يغلفه صمت مُطبق، وماذا يفيد الكلام في أمة تسقط.

اقترب الوفد من خيمة هولاكو التي تقع خارج الأسوار الشرقية لبغداد، ودقات القلب متسارعة والكل لا يدري ما الذي يمكن أن يسفر عنه هذا اللقاء؟

لكن قبل الدخول على زعيم التتار اعترض الوفد فرقة من الحرس الملكي التتري ولم يسمحوا لكلٍّ من الوفد بالدخول إلى خيمة هولاكو بل قالوا:

– إن الخليفة سيدخل ومعه سبعة عشر رجلًا فقط والباقي سوف يخضعون للتفتيش الدقيق.

حدث اضطراب في الوفد،شعر الكل أن هناك مكيدة،ما فما الذي يقصدونه من التفتيش الدقيق؟ لقد جاؤوا من أجل المفاوضات وليس من أجل القتال، لو كانوا يريدون القتال لما أتوا، هم يعرفون ذلك، ولكنهم أصروا على دخول الخليفة وسبعة عشر رجلًا فقط معه، لم يفعل الخليفة شيئًا تجاه هذا الأمر، ولكنه إمتثل لأوامر هولاكو ودخل هو ومن اختارهم من رجاله.

وعرف منصور وبقية الوفد أن هذه النهاية، فهم لم يخضعوا للتفتيش كما ادعوا، بل أخذوهم جميعًا ليقتلوهم.

ارتمى منصور أرضًا وشاهد الدماء وهي تترف منه وشاهد شريط حياته يعرض أمامه كما لو كان يحدث الآن، رأى نفسه طفلًا تملأ ضحكته الآفاق، فرحته لرؤية لفاطمة أول مرة، عسر حاله في مصر وقراره برحيله إلى بغداد والدموع تغمر وجه فاطمة وخوفه من المستقبل، سعادته وهو يقبل ابنه محمد عند ولادته وتكبيره في أذنه،

أول متجر يفتتحه، تجارته التي كانت تزدهر يومًا بعد يوم، وجه عبد الرحمن عندما يجري مسرعًا عندما يعود الى البيت.

الدماء تنزف منه والدموع تتفجر من عينيه كينبوع، يحاول جاهدًا أن ينطق الشهادة، أشهد ألا إله إلا الله وأن محمد رسول الله، يبتسم لتمكنه من نطقها ثم يلفظ أنفاسه الأخيرة لينتقل إلى دار الآخرة.

وهنا اكتشف الخليفة أن وفده قُتل بالكامل، اغرورقت عيناه بالدموع فقد أدرك أن التاريخ سوف يسجل اسمه مقرونًا بسقوط بغداد.

***

5

20 مارس 2003 بغداد

اليوم الأول:

بداية الغزو الأمريكي البريطاني على العراق.

"بعد ساعة ونصف الساعة من انتهاء مهلة الثمانية والأربعين ساعة التي حددها الرئيس الأمريكي جورج بوش للرئيس العراقي صدام حسين للتنحي عن السلطة وترك البلاد مع ولديه،بدأت الحرب بضربات صاروخية وجوية استهدفت أبرز عناصر القيادة العراقية التي حددها بدقة وكالات المخابرات الأمريكية وخصوصًا مقرات للرئيس العراقي إلا أنها لم تسفر عن مقتل أحد منهم".

هكذا أهت غفران حديثها مع مسئولي الصحيفة التي تعمل بها في لندن وبدأت في كتابة تقرير عن أحداث اليوم الأول من حرب أمريكا على العراق. ثم التقطت غفران كاميرا (علي) تنظر إلى الصور التي التقطها لانفجارات بعيدة حدثت بالعاصمة العراقية بغداد.

كان دوي الانفجارات الناتج من صواريخ كروز الأمريكية يرجُّ بغداد بأكملها،وكانت المساجد تصيح بالتكبير والتسبيح،شعور مهيب أن تشعر أن كل شيء بما تعنيه الكلمة، كل ما تملكه وما تكونه على المحك يحيط بك مزيج من الترقب والخوف من المجهول.

قاطع صوت (علي) غفران من شرودها في تلك الحظة:

– أي الصور سنُرسل للصحيفة؟

أعطت غفران الكاميرا إلى علي:

– أرسلها جميعًا وليختاروا هناك ما يناسبهم منها.

– حسنًا.

غفران تسأل باهتمام علي:

– هل تظن أن الحرب ستطول أم أها ستنتهي سريعًا؟

– جورج بوش ألقى كلمة اليوم للشعب الأمريكي في ساعة مبكرة من صباح اليوم أشار فيها إلى أن العمليات قصدت أهدافًا مُنتقاة وتعهد فيها باستخدام القوة الحاسمة لتقصير أمد الحرب.

ردت غفران في تشكك:

– هل تصدق ذلك؟

– سنرى،ولكني أعرف أن الحرب لن تنتهي سريعًا على أي حال.

علي:

– صدام حسين يُلقي كلمة الآن على التليفزيون العراقي.

ينتقل نظر علي وغفران مباشرة إلى شاشة التليفزيون ليشاهدا كلمة صدام حسين والتي أعلن فيها أن أمريكا نفذت تهديداتها للعراق وأنها ستخسر في حربها ضد العراق.

بعد أن انتهى صدام حسين من كلمته حاولت غفران أن تنهي تقريرها عن اليوم الأول للحرب.

بينما كان علي يمسك بهاتفه فقد كان يحاول منذ الصباح الوصول إلى خالد، فمنذ أن تركا الفندق الذي كانا يقيمان فيه بداية لم يشاهدا خالدًا بعد.

علي:

– ألو، أهلًا خالد،كيف حالك؟

خالد:

– الحمد لله وكفى.

- كنتُ أحاول أن أتوصل إليك منذ عدة أيام ولكني فشلتُ.

- لا عليك أنا ذهبت إلى الفندق وعلمت أنكم تركتم الفندق إلى فندق آخر كنت أنوي أن أذهب إليكم اليوم ولكن الحرب بدأت.

- هل تستطيع أن تأتي غدًا؟

- سأحاول.

- حسنًا نحن في انتظارك.

أقفل (علي) خط التليفون مع خالد،وأخبر غفران أن خالدًا سوف يأتي غدًا.

أحست غفران بقلبها يهبط فجأة لا تعرف لماذا عندما أخبرها (علي) أن خالدًا سيأتي غدًا أصابتها تلك الحالة ربما لأنها لا تريد أن تشاهد أيًا من العراقيين تعرفه وبلاده في حالة حرب، هي أضعف مما تظنُّ، تريد أن تكون تغطيتها للحرب تغطية مهنية من الطراز الأول، ولكن اتضح لها أنها غير ذلك،كثيرًا ما تقتحم مشاعرها في ذلك الأمر، خالد يشعرها بمأساة الحرب حتى ولو لم يتحدث كثيرًا، صمته مليء بالوجع هكذا تشعر به وهي لا تريد أن تتحمل هذا، يكفيها ما بحياتها من وجع، عندما قبلت بتغطية الحرب كانت تريد الهروب من الألم الذي تشعر به لا أن تزيد عليه.

***

في بهو الفندق الذي كان يجلس فيه غفران وعلي والذي كان يضم العديد من المراسلين من الوكالات المختلفة يأتي خبر من مصدر عسكري بريطاني يقول:

- الهجوم البري الرئيسي بدأ، والقوات البريطانية مشاركة في الهجوم.

ووزير الدفاع البريطاني جيف هون يعلن أمام البرلمان أن الحرب في العراق قد لا تنتهي سريعًا، وأن رئيس الوزراء توني بلير سليقي كلمة أمام الأمة فور اشتراك القوات البريطانية في الأعمال العسكرية.

"بريطانيا أعلنت دعمها التام لأمريكا.. لن تكون حربًا سهلة على العراقيين، ولن تكون سهلة على أمريكا وبريطانيا أيضًا.

هناك صحفيون على الحدود العراقية الكويتية يؤكدون سماع أصوات قصف مدفعي على الأراضي العراقية.. والعراق يطلق تسعة صواريخ تستهدف القوات المتحالفة دون حدوث أدنى إصابات، والعراق تضرم النار في عدد من آبار النفط العراقية".

هكذا أنهت غفران حديثها مع مسئولي الصحيفة التي تعمل بها كي تطلعهم على آخر الأخبار.

كان سماع دوي الصواريخ التي تطلقها أمريكا في بغداد عظيمًا، فقد اشتعلت النيران في مبانٍ عديدة، كيف يمكن لأمريكا أن تدعي

أنها سوف تأتي لإعمار العراق، الحرب خراب بالكامل، كيف يأتي الإعمار على دماء تسيل، الموت الملاصق للحرب لا يمكن أن يسفر عن إعمار أبدًا.

وها هي وزارة الخارجية الأمريكية تطلب إغلاق السفارات العراقية في كل مكان في العالم، ثم تضرب القوات الأمريكية بالمدفعية الثقيلة الأراضي العراقية، ما هذا العبث الذي يحدث في هذا العالم؟ أمتلكُ الآن كمية هائلة من الغضب.. هكذا حدثت غفران نفسها.

التفت علي إلى غفران التي كان يبدو عليها الانزعاج بعد أن انتهى من تصوير بعض من المباني التي اشتعلت فيها النيران، والتي كانت تظهر من خلال شرفة الفندق متسائلًا:

– ما الذي يزعجك إلى هذا الحد؟

ردت غفران بحدة:

– إنه مستر بن، يرى أن تغطيتي للحرب غير مهنية، برغم أنني لا أرسل لهم سوى الحقيقة.

بهدوء تحدث علي:

– ربما هو لا يريد الحقيقة، فالحقيقة تبدو مزعجة أحيانًا.

بحنق قالت غفران:

– إذًا لماذا أرهقنا بالمجيء إلى هذا الجحيم إن لم يكن يريد ذلك.

– للحقيقة أوجه كثيرة، عزيزتي غفران، وهو ربما يزعجه هذا الوجه الذي تقدمينه.

في يأسٍ تساءلت غفران:

– وما الذي ينبغي لي فعله الآن؟

– أنتِ مَن يجب أن يحدد إجابة هذا السؤال.

ثم اتجه علي بنظره إلى شرفة الفندق ووقفت غفران صامتة بجانبه وهي تشاهد من بعيد ألسنة اللهب وهي تلتهم بعض المباني، كانت تشعر أن هذه النيران متصلة بها تكاد تخترقها من الداخل، ثم نظرت إلى السماء لعلها ترسل رحماها، فتجعل النار التي تعتريها بردًا وسلامًا عليها.

***

انتاب خالد ضيق شديد بعد مكالمة (علي) له، هو لم يعد يريد أن يساعدهما بعد الآن، فالبلد الذي يأتون منه يعلن دعمه لأمريكا ويشارك في الهجوم على بلاده، كيف يساعد هؤلاء؟ أيشعر بالحنق الشديد هو يعرف أن غفران وعلي لا علاقة لهما بقرارات بريطانيا، يعلم أيضًا أنهما عربيان، وأنهما مجرد مراسلين يبعثان بأخبار الحرب إلى الصحف التي يعملان بها وأن الأمر مهني من الدرجة الأولى ولكن حقيقة أن الصحيفة التي يعملان بها تقع في لندن لا يستطيع نكرانها، هو أمامه الآن خياران لا ثالث لهما.

إما أن يرفض مساعدهما وهذا هو الأسهل والأفضل فهو لا يريد ذلك على أي حال.

وإما أن يوافق على ذلك رغم تخوفه.

وبعد تفكير طويل أظنُّ أن الخيار الثاني هو الأنسب، فربما يمكن له أن يحقق هدفًا أسمى، فهو يريد أن يرى العالم الغربي الادعاءات الأمريكية والبريطانية، يريد أن يرى للعالم حجم الظلم الذي تعرضت له العراق، وهذا أفضل ما يمكن له فعله في تلك الظروف، وغفران وعلي يريدان الحقيقة فقط، وإلا لما استعانا به منذ البداية، هو لا يساعد بذلك قوات الاحتلال فقد حدثت الكارثة لا محالة،ولكن على أمل أن يفعل ذلك مساعدة لوطنه الذي بخل عليه بكل شيء، بَخِلَ عليه بحياة مريحة، بَخِلَ عليه بتعليم جيد بخل عليه بأن ينعم بزوجة يسكن إليها، فها هو تعدى الثلاثين من عمره، ولم يتزوج بعد لصعوبة ظروفه فهو بصعوبةٍ يستطيع أن يعيل جدته التي يسكن معها، فكيف له أن يعيل زوجة وأطفالًا،؟ ومع هذا يظل الوطن هو كل ما يملك، يظل حفنة من ترابه تساوي الدنيا وما عليها، نظل نلعن أوطاننا وعندما نشعر أننا يمكن أن نفقدها نعرف أن لعننا إياها مجرد ادعاء.

أصوات الصواريخ الأمريكية وهي تقصف سماء بغداد توجد لديه شعور غريب بقلة الحيلة،لا يعرف هل حقًّا العراق بالقوة التي يتحدث بها النظام؟

طرح خالد السؤال على نفسه فوجده مخيفًا حقًّا في هذا الوقت والإجابة عنه مرعبة، حتمًا سيجيب عنها الزمن قريبًا.

***

بغداد 21 مارس 2003

استيقظت غفران فزعة لا تعرف كم غفت من الوقت،تذكرت على الفور أن هناك حلمًا غريبًا راودها،فقد رأت نفسها ترتدي عباءة زرقاء وكانت حزينة جدًّا تبكي بكاء لا ينقطع في صمت وبجانبها طفلان متشبثان بعباءتها، وفجأة ظهر أمامها طريق مليء بالحجارة وجدت صعوبة في المشي عليه،فتقدَّم أحد الطفلين ومشى به، فأخذت تجري خلفه والطفل يعدو أمامها، وأخذت تُناديه أن يتوقف فقد أصابت الحجارة قدمها، وأخذت تنزف، ولكن الطفل لم يلتفت إليها وظل يعدو حتى وجدت نفسها في فناء واسع مليء بالخضرة، لم تعرف غفران تفسير هذا الحلم،ولكنها كانت تشعر أنه حقيقة لدرجة جعلتها تنظر حولها لتتأكد أنها حقًّا كانت تحلم، بدَّلت ثيابها سريعًا ثم نظرت لنفسها في المرآة، شعرت أنه من المرهق جدًّا أن تعيش أمرًا سيئًا لا تعرف متى وكيف ينتهي.

قابلت عليًّا الذي كان ينتظرها في بهو الفندق.

- صباح الخير يا علي.

- صباح الخير، هل نمتِ جيدًا؟

- لا أعرف، أشعر أنها كانت إغماءة وليس نومًا

ابتسم علي:

- لقد انصرفتُ فجأة حتى أنني قلقت عليكِ.

- لا تقلق لقد شعرتُ بالتعب قليلًا ولم أرد أن أزعجك في أثناء عملك.

- لا عليك، لقد تحدثت مع خالد قبل مجيئك وهو في الطريق إلينا الآن.

- حسنًا.

دائمًا غفران تترعج من ذكر خالد أمامها لا تدرك السبب الحقيقي بعد، ولكنها تشعر أن هناك شيئًا يربط بينهما لا تعرفه بعد.

جاء خالد وقد ازداد وجهه شحوبًا عما سبق ناداه (علي) لينضم إليهما.

خالد:

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام، كيف أحوالك، علي؟

- كما ترى.

لا تنبس غفران بأي كلمة،فكيف تسأل شخصًا عن أحواله وبلده في حالة حرب؟! وما الذي يمكن أن تقدمه له في ذلك الوقت سوى أن تصمت احترامًا لمأساته.

علي:

- خالد، نحن نريد أن نقوم بعمل تغطية أوسع مع توخي الحذر طبعًا، أريد أن ألتقط صورًا في أماكن شتى في بغداد، هل تستطيع أن تُؤمِّن لنا هذا؟

- سأحاول.

- حسنًا.. غفران، هل نستطيع أن نبدأ من اليوم؟

تتحدث غفران لأول مرة منذ قدوم خالد:

- فليكن هذا.

تمتم خالد:

- أريد أن أطرح سؤالًا إن شئتما.

غُفران:

- يمكنك أن تسأل في أي وقت.

– اليوم أعلن وزير الدفاع البريطاني جيف هون أن بلاده شاركت في ضرب بغداد وأنا أعلم أن الصحيفة التي تعملان لحسابها في لندن، فإلى أي جانبٍ تنحازان؟

تتنهّد غفران تنهيدة طويلة:

– أنت إلى أي جانب ترانا ننحاز؟

خالد بتحد:

– لا أعرف، لهذا أسأل.

بنفاد صبر تتحدث غفران:

– ننحاز إلى الحقيقة بلا أي تجميل، وإلا كنا في تغطيتنا للحرب انضممنا للقوات البريطانية أو الأمريكية، ولكان هذا أسهل وآمن لنا من هذا الشقاء اليومي الذي نعيشه، كان يجب أن تفكر قليلًا لتدرك الأمر.

– حسنًا، كان هذا أمرًا يُقلقني على أي حال، يُمكنني أن أساعدكم وأنا مطمئن.

يبتسم علي بعصبية:

– وهل كنت فيما مضى تساعدنا وأنت قلق!

- دعك من هذا الآن،سنحاول أن نذهب في جولة ميدانية سريعة جدًّا، ثم تعودوا إلى الفندق.

أخذت غفران تدعو بصوت خافت وبتضرع واضح وهم يخطون خارج أبواب الفندق.

الشوارع ساكنة بشكل مخيف، من الذي يشكو الضوضاء والازدحام فهم دليل الحياة، ففي السكون موت، أخذ علي يلتقط بعض الصور بطريقة سريعة.

ثم دوت أصوات هائلة نتيجة انطلاق صواريخ أمريكية، صوت الصواريخ كان قريبًا منهم إلى حد مفزع، حاولت غفران أن تصرخ ولم يطاوعها صوتها على الخروج.

ثبت علي كاميراته ناحية انطلاق الصواريخ وأخذ يصور بعض المشاهد سريعًا ثم ابتعد قليلًا، أما غفران فوجدت نفسها عاجزة تمامًا عن الحركة حتى شعرت بيد تجذبها، انتبهت لهذا فجأة، فإذا بها فريدة تمسك بيديها وتأخذها بعيدًا عن مرمى النار.

وصلا الفندق بسلام وبرغم ذلك فقد كانت غفران تتنفس بصعوبة بالغة، تذكر (علي) بعض تدريبات الإسعافات الأولية التي أخذها قبل الذهاب إلى بغداد، فأخذ يساعد غفران على التنفس بطريقة سليمة،هدأت غفران قليلًا وشربت رشفة من كوب الماء الذي أعطاها إياه خالد والذي اتضح من ملامحه أنه قلق جدًّا.

حاولت غفران أن تبتسم:

– أنا آسفة لجعلكم تقلقون عليَّ هكذا.

يضع علي يديه على قلبه ساخرًا:

– أنتِ تتعبين هذا القلب كثيرًا، احذري ذلك.

يبتسم خالد من كلام علي، ثم يلتفت إلى غفران:

– لا تعتذري، الأهم أنك بخير الآن.

ثم يردف كلامه:

– أظنُّ أن هذا كافٍ جدًّا لليوم، إذا كان هناك غد فلنتقابل فيه.

ينصرف خالد، تحاول غفران أن تستعيد رباطة جأشها ثم تجمع الأخبار التي توصلوا لها حتى الآن من المصادر المختلفة.

"انفجارات هائلة في العاصمة العراقية بغداد،وتصاعُد ألسنة اللهب والدخان، وإصابة أحد القصور الرئاسية، وقيام القوات الأمريكية والبريطانية بألف طلعة جوية أطلقت خلالها ألف صاروخ على العراق، وجرح نحو سبعة وثلاثين مدنيًّا عراقيًّا في أثناء القصف الأمريكي الليلي، هذا ما وردنا من أنباء".

أنهت غفران حديثها مع مسؤولي الصحيفة في لندن ثم صعدت إلى غرفة فريدة وطرقت الباب لتسمع صوتًا من الداخل يدعوها للدخول.

دلفت غفران إلى الغرفة فأشارت لها فريدة بالجلوس بينما كانت هي تتحدث بالهاتف:

- حسنًا إلى اللقاء يا عمرو.

وما إن سمعت غفران كلمة (عمرو) حتى أحست كأن على رأسها الطير، كانت تريد أن تنصرف فورًا ولعنت غباءها الذي سمح لها أن تجيء بكامل إرادتها لهذه الغرفة.

ابتسمت فريدة:

- أهلًا غفران، لقد كنت أتحدث مع عمرو الآن، ولم يصدق قط أنك هنا في العراق لتغطية حرب.

- لقد كان دومًا يخبرني أنني لستُ امرأة مجازفات.

ثم تدقق النظر إلى فريدة وتكمل:

- من المؤكد أنه وجد ضالته بكِ أنتِ يا فريدة.

- عمرو لن يكفيه إلا امرأة تجمع بيننا نحن الاثنتين، أنا أيضًا أشعر أنه ينقصني الكثير مما تتملكينه أنتِ غفران.

تتسع عينا غفران من الدهشة:

- أنا؟!

– نعم، أنتِ غفران،أنتِ يمكنكِ الذوبان بالكامل بمن تحبينه، يمكن أن تضحي بكل شيء من أجله،عكسي تمامًا على الرغم من أني لم ولن أحب سوى عمرو، ولكنني غير قادرة على التخلي عن حياتي بأكملها في سبيله.

بتردد تقول غفران:

– هل طلب منكِ ذلك؟

ابتسمت فريدة ابتسامة واسعة:

– لن يجرؤ أن يطلب مني ذلك ولكنه يعرف هذا جيدًا.

بصوت مختنق قالت غفران:

– وإن طلب ذلك يومًا، لا تفعلي.

– أنا أعلم أنه لا يحق لي سؤالك عن علاقتك أنتِ وعمرو، لكن هل يمكن أن تخبريني كيف انتهى بكما الحال إلى الانفصال؟

– لا شيء سوى تفاصيل صغيرة مملة.

ثم حاولت غفران أن تدير دفة الحديث فنهضت قائلة:

– لقد جئتُ لكي أشكرك على إنقاذي اليوم.

–لا عليك.. انتبهي لنفسك في المرات القادمة.

– حسنًا.

وما إن أغلقت غفران باب الغرفة خلفها حتى انسابت دموعها كالمطر، حاولت أن تستند إلى الحائط، فتعثرت وكادت تقع لتجد (عليًّا) أمامها يمسك بكتفيها وينظر لها في ذهول.

يساعد (علي) غفران على الدخول إلى غرفتها ويحضر لها كوبًا من الحليب الدافئ يساعد على تهدئتها قليلًا ثم ينظر لغفران في عينيها:

– ماذا بكِ غفران؟

تشيح غفران بوجهها بعيدًا عنه في محاولة منها لمنع دموعها من السقوط:

– لا شيء يا على، أنا بخير.

يمسك علي بوجهها وينظر لها:

– غفران أنتِ لست بخير على الإطلاق،لا يوجد مشكلة أن تقولي ذلك.

تبكي غفران فيمسح (علي) دموعها بيديه:

– ما الذي يؤلمك إلى هذا الحد؟

– أنا خائفة يا علي.

– سأظل بجانبك دومًا.

– أشعر بوجع يعتصر قلبي.

- سنعبر تلك المحنة معًا.

- لن تتحمل وجعي.

- غفران، أنا أحبك.

ابتسمت غفران في ألم، فأخذ (علي) يربت على كتفيها، فها هو أخيرًا استطاع أن ينطقها، ثم ساد صمت في الغرفة، يقطعه صوت الصواريخ لتزيد من وجع اللحظة.

***

السبت 22 مارس 2003

في مطلع كل صباح تستيقظ فيه من نومك يبقى ذهنك مُنشغلًا بما يجب أن تفعله اليوم، قائمة من الأعمال اليومية يجب عليك القيام بها، يجب أن تذهب إلى مقر عملك وتقوم بعض الاتصالات والتقارير، تشتري احتياجاتك، تذهب لزيارة بعض الأصدقاء، تكمل قراءة أحد الكتب الذي اشتريته من فترة، تبقى منشغلًا حتى تخلد إلى النوم لتبدأ غدًا يومًا جديدًا بأعباء جديدة.

ولكن وأنت موجود في بلاد في حالة حرب تعرف أن كونك تشهد صباح يوم جديد تلك معجزة يجب أن تسجد لله شكرًا لها لا أن تبقى منشغلًا عنها بأي شيء آخر، تقديرك لنعمة حضورك شروق الشمس يجب أن يكون عظيمًا.

هكذا شعرت غفران وهي تنظر من شرفة غرفتها بالفندق لشروق الشمس. أصابها الأرق كالعادة الليلة الماضية لم تكن تشعر أن بقاءها على قيد الحياة مُهدد مثلما شعرت بالأمس، عند انفصالها عن عمرو كانت تشعر أنها حتمًا ستموت بعد فراقه لها بأيام، ولكن ما حدث لها بالأمس جعلها تدرك أن ذلك محض أوهام، تستطيع أن تميز بين الوهم والحقيقة، إن للحقيقة رهبة مخيفة تجبرك على معرفتها.

كذلك الحديث الذي دار بينها وبين فريدة واعتراف علي بحبه لها، هل حقًّا ما قاله علي ليلة البارحة؟! كيف لم تشعر بحبه لها في وقت سابق؟ ألهذا تحمَّل أن يُلقي بنفسه في الجحيم ليكون معها؟! ما أشقاه لكي يحب امرأة مثلها!

بعد أن تُبدِّل ملابسها تلقي نظرة على وجهها في المرآة، تشعر أن آثار الحرب بدأت تأخذ حيِّزًا واضحًا بين ملامحها تبتسم في تهكُّم:

(عندما أعود إلى لندن يجب أن أطالبهم بمصاريف معالجة بشرة، أولتدرجني أمريكا تحت مصاريف إعمار العراق، أليس ذلك إعمارًا على أي حال؟)

***

تبحث غفران عن (علي) فتجده يجلس في بهو الفندق يحتسي فنجانًا من القهوة، تجلس بجانبه ولكن (علي) لم يشعر بوجودها فقد كان شاردًا تمامًا، كان يفكر في أن وجه صديقه (عمار) بابتسامته

الواسعة يسيطر على مخيلته منذ أن جاء إلى العراق، هو لم ينسَ عِمارًا يومًا ولكن وجهه لا يكفُّ عن مطاردته هذه الأيام ما الذي ذكَّرك بي يا عمار.

أأجئتَ تُحذرني من شر قد يحدث لي أم أنك غاضب مني لأني جئتُ إلى تلك الضوضاء السياسية بكامل إرادتي؟ أنا أتذكر أنه بعد مماتك بفترة قطعت لك وعدًا ألا أهتم،أعرف أنك خائف عليَّ ولكني لا أستطيع تحمل فكرة أن تكون غاضب منى أنت تعرف كم أخذت من وقت لأتجاوز مأساة فقدانك، فأنا إلى اليوم لا أستطيع أن أغفر لنفسي أنني لم أحمِك بدرجةٍ كافية،كنت تصغرني بثلاث سنوات، وكنت أشعر أن حمايتك مسئوليتي، وأن ما حدث لك من سوء أنا مسئول عنه، هل تراني يا عمار قادرًا على حماية غفران؟!

أفاق (علي) من خواطره على صوت غفران:

– علي، هل أنت بخير؟

– نعم.. بخير.

– ما الذي يشغل بالك إلى هذا الحد؟

– لا شيء، الحرب تجلب ذكريات سيئة.

تومىء غفران رأسها بأسى:

- نعم، هي الحرب التي تبعثر كل شيء داخلنا، ولكنك لم تحدثني من قبل عن ذكرياتك الصعبة.

- هل أخبرتك يومًا ما عن صديقي عمار؟

- لا، لم تخبرني عنه من قبل.

- عمار هذا صديق طفولتي، نشأنا معًا في نفس الحي، تعلمنا معًا الخطأ والصواب، أول شعور بالحب تجاه فتاة كان بجانبي، أول مرة أذهب فيها إلى الجامعة كانت خطواته تسبق خطواتي، حتى عندما تركتني أول فتاة أحببتُها كان هو أول من يربت على كتفي، كل الأول الذي حدث في حياتي كان شاهدًا عليه، ولكن خلال فترة الجامعة كنا نتقابل على فترات متباعدة، حتى كان شهر أكتوبر عام 1988 حيث حدثت إضرابات عمالية وطلابية التي أخذت طابعًا عنيفًا بصورة تدريجية وانتشرت أعمال تخريب للممتلكات الحكومية، فقامت الحكومة بإعلان حالة الطواريء وقامت باستعمال القوة، وتمكنت من إعادة الهدوء بعد أحداث عنيفة أدت إلى قتل نحو خمسمائة شخص واعتقال أكثر من ثلاثة آلاف شخص، وسُميت هذه الأحداث من قبل البعض "بأكتوبر الأسود"، في هذه الأحداث مات عمار.

توقف علي يلتقط أنفاسه ثم أكمل:

- موت عمار كان فاجعةً بالنسبة لي، في البداية لم أصدق الأمر كنت حتى لا أريد أن أحضر العزاء، ولكن وجدت كل أصدقائنا يبكون فعرفت أنها الحقيقة، كنت أتمنى أن يكذب عليَّ أي شخص ويخبرني أنه أُصيب أو أنه سافر، بعد موت عمار تغيرت حياتي تمامًا فقد كان عمار طوال حياته مهتمًا كثيرًا لما يحدث للبلاد، ولكني كنتُ على عكسه تمامًا، كنتُ وقتها أملك كاميرا وكنتُ منشغلًا بالتصوير كثيرًا، تلك الأيام لم أكن أهتم كثيرًا حتى مات عمار انقلبت حياتي رأسًا على عقب، حاولت أنا أفهم لماذا قُتل عمار فلم أجد جوابًا منطقيًا، حاولت أن أُتابع السياسة، وأقرأ الصحف ولا شيء يعطيني إجابة وافية لماذا قُتل عمار؟ ما السبب في قتله؟ حتى عام 1997 كان هذا عامًا حزينًا على الجزائر، فقد ارتُكب فيه عددٌ كبير من المذابح الوحشية مات بها الكثيرون مما لا ذنب لهم،وهنا عرفت أنني لا أحتاج إلى جواب منطقي عن سؤال:

لماذا قتل عمار؟ لم أعد أحتمل الوضع أكثر.

سافرت إلى لندن وجعلت الكاميرا صديقتي، كنت أصور ما أريد أن أراه، نسجت حولي عالمًا يخصُّني وحدي بعد أن أرهقتني قوانين العالم الذي كنت أعيش فيه، حتى جئت إلى بغداد، وذكرى عمار وصورته لا تفارق مخيلتي.

– ربما أنا يجب عليَّ أن أعتذر منك الآن، فأنا السبب في أن تعيش هذا الوقت الصعب.

– هل كنتِ تظنين أنني سوف أسمح لك بالذهاب للجحيم وحدك، أنتِ واهمة.

يقاطعهما صوت خالد:

– السلام عليكم.

ينظران فيجدان خالدًا يقف بجوارهما.

يرد علي:

– وعليكم السلام، أهلًا خالد، كيف أحوالك؟

– الحمد لله.

ينقل خالد نظره إلى غفران:

– كيف حالك اليوم؟

– أنا أفضل الآن.

علي:

– خالد أريد أن نأخذ اليوم جولة في بغداد، أريد أن أصور الأماكن التي حدث فيها القصف.

خالد:

– هذا سيكون خطرًا نوعًا ما.

– سأذهب أنا وأنت فقط، غفران ستبقى هنا.

تزمُّ غفران شفتيها بعصبية:

– هل هذا هو عملي الذي تكبدتُ تلك المسافة من أجله، سوف أذهب معكما.

ينظر علي إلى غفران بحدة:

– لا نريد تكرار ما حدث بالأمس،أنا سوف أذهب لتصوير بعض المشاهد، وأنتِ تنقلين الأخبار من المصادر التي لديكِ.

بتحدٍّ تردُّ غفران:

– لن أفعل ذلك،يجب أن أكون في قلب الحدث حتى أستطيع نقل الصورة الحقيقة عما يحدث.

– إذًا انظري إلى الصور التي التقطتُها لا داعي لأن تذهبي.

– الصور لا تعبر عن الحقيقة، الصور حقيقة صامتة.

ثم تهبُّ واقفة:

– هل سنتناقش كثيرًا أم يجب علينا الذهاب حتى نعود مبكرًا؟

يتردد خالد قبل أن يوجه حديثه إلى غفران:

– ربما يكون هذا قِرارًا خاطئًا منكِ.

تنظر غفران إلى خالد مباشرة:

- لقد اتخذت كثيرًا من القرارات الخاطئة من قبل، لديَّ خبرة في ذلك.

ينهض (علي) واقفًا ويمشي بضع خطوات ويتحدث بعصبية:

- فلنذهب.

عند أول خطوة لهم خارج الفندق تتأكد غفران أنها اتخذت قرارًا خاطئًا بالفعل ولكن الذي لم يدركه علي وخالد أنها تخاف أن يحدث لهم سوء، فما الذي يجب عليها فعله إذا حدث ذلك؟! هما الآن كل ما تملك هنا، فكيف تترك كل ما تملكه بعيدًا عنها حتى وإن أصابها سوء وهما بجانبها أفضل من أن تبقى آمنة وهي وحيدة، ما أشقاها إذا أصبحت وحيدة في تلك الأجواء!

***

كان خالد يسير بمحاذاة غفران التي كانت تحاول أن تسأل بعض المارة عن معاناتهم تحت القصف، وكان علي يتقدمهما قليلًا.

حتى حدث قصف شديد لم تعرف غفران ما الذي حدث، وقتها كل شيء حدث في سرعة كبيرة أحست أن قدميها لم تعد تقويان على حملها، سقطت أرضًا وشعرت بألمٍ كبير، التفت فوجدت الدماء تنزف

منها، دمعت عيناها،شعرت أنها النهاية أدارت رأسها فشاهدت (عليًّا) فوجدته يسقط أرضا والدماء تنزف منه بغزارة.

حاولت أن تُبقي عينيها مفتوحتين، حاولت أن تذهب إليه حاولت أن تناديه لم تستطع ذلك، عجزت تمامًا عجزت حتى أن تُبقي عينيها مفتوحتين أكثر، أغلقت عينيها على أسوأ مشهد يمكن أن تراه، أغلقت عينيها وقد شعرت أن أسوأ مخاوفها على الإطلاق قد تحقّق بالفعل.

***

6

بغداد، صفر 656 هـ

بكى أحد الحكماء على قبر ولده فقيل له:

– كيف تبكي وأنت تعرف أن الحزن لا يفيد؟!

فنظر إلى سائله طويلاً ثم قال متحسِّرًا:

– إن هذا ما يبكيني!

ربما هذا أيضًا ما أبكى الخليفة المستعصم بالله، فكيف انتهى به الحال إلى هنا.

فقد ظَلَّ على كرسي الحكم ستة عشر عامًا كاملة يحاول أن يقيم العدل بين الرعية كثير الصدقات يكرم العلماء والعباد، فعل كل ذلك

ولكن بطانته كانت فاسدة، فها هو يرى ودًا بين هولاكو ووزيره الخائن مؤيد الدين بن العلقمي،كيف لم يكتشف ذلك؟ هل كان غافلًا إلى هذه الدرجة؟! لقد كان مؤيد الدين بن العلقمي أقرب وزرائه إليه، يستشيره ويأخذ برأيه،وهنا اتضح في ذهنه الوقيعة التي أوقعت به تذكر نصائح ابن العلقمي له كيف نصحه بتقليل عدد الجيش الذي صار عشرة آلاف فارس بعد أن كان في عهد أبيه مائة ألف؟ كيف نصحه بعمل مفاوضات مع هولاكو؟ كيف بعثه المستعصم هو وماكيكا ليجري مفاوضات سرية مع هولاكو،؟ لقد كانت خطواته تتفق تمامًا مع ما كان يريد هولاكو، ماذا يفيد الحزن الآن؟ ماذا تفيد المعرفة المتأخرة اليوم؟ كيف سيقف أمام الله، ما الذي يمكن أن يبرر له غفلته وضياع أراضي المسلمين؟ ملأه الرعب عندما أصدر هولاكو أوامره بأن على الخليفة أن يصدر أوامره لأهل بغداد بإلقاء أي سلاح والامتناع عن أي مقاومة، لم يكن في وسعه أن يفعل أي شيء سوى أن يُذعن لهولاكو، أصدر أوامره بإلقاء السلاح، ثم قُيِّد وسِيقَ إلى المدينة يرسف في أغلاله لكي يدلّ التتار عن كنوز العباسيين وأماكن الذهب والفضة.

(يا ليتني متُّ قبل هذا وكنتُ نسيًا منسيًّا).

هكذا كان لسان حال المستعصم بالله، ولكن تبين أنه حتى الموت يستعصي عليه، فكيف بعد أن كان يملك بنو العباس مشارق الأرض ومغاربها تكون نهاية تاريخهم على يده، قسوة القيود التي كانت تَغلُّه

أقل قسوة مما يشعر به من المهانة والذل والخزي والعار الذي لَحِقَ به، أما كان أشرف له بأن يقتل وهو يحارب التتار حتى ولو يحارب وحده على أن يعيش مزيدًا من الليالي في هذا الذل الأبدي الذي يشعر أنه لا ينتهي، حتى أنه يشعر أنه سوف يلاحقه في حياته الأخرى، يا ليت ذلك ينتهي عند هذا الحد! ولكن يظهر أن المأساة لم تكتمل بعد، فها هو ولده الأكبر (أحمد أبو العباس) وولده الأوسط (عبد الرحمن أبو الفضائل) يُقتلان أمام عينيه، ويتم أسر الثالث (مبارك أبو المناقب)، كما يتم أسر أخواته الثلاث (فاطمة وخديجة ومريم) ويذبح أستاذ دار الخلافة الشيخ محيي الدين يوسف ابن الشيخ أبي الفرج بن الجوزي، ويُذبح أولاده الثلاثة عبد الله وعبد الرحمن وعبد الكريم ويُذبح مجاهد الدين أيبك، وزميله سليمان شاه ويُذبح شيخ الشيوخ ومربيه (صدر الدين على بن النيار) ثم يُذبح بعد هؤلاء خطباء المساجد والأئمة وحملة القرآن،كل هذا،والخليفة حي يُشاهد!! كيف لا يمكن أن تنتهي حياته بسرعة؟ هل لأن الموت الآن أصبح رحمة لا ينالها إلا بعد تعب؟! أم أن الحياة تعاقبه على تشبثه بها بالمزيد منها؟! تمنى الموت، ولكن هل كان يدرك أنه سيموت على هذه الصورة؟ هل كان يعلم وهو على كرسي الخلافة أن تلك ستكون نهايته، فلو رآها في رؤية لظنَّ أنه انتابه بعض الجنون، لو قرأ قصة مشابهة لها في كتب الأساطير لاتهم كاتبها بالخبل، فكيف يمكن لخليفة أن يموت "ركلًا بالأقدام" فقد أشار بعض أعوان هولاكو أنه يجب أن يُقتل الخليفة بوسيلة لا تسيل فيها الدماء حتى لا يطالب المسلمون بثأره لو سالت دماؤه على الأرض، فأمر بأن يقتل ركلًا بالإقدام.

فها هو التاريخ يمسك قلمه أسفًا وبمداد أسود يحاول أن يسجل هذه الفاجعة يوم الرابع عشر من صفر، عام 656 هـــجرية، يُسجل كيف تجرأت أقدام التتار أن تنهال على جسد الخليفة، حتى الموت يرفض أن يأتيه سريعًا، فهي غاية صعب أن تُدرك، لا أحد يعرف ما الذي يفكر فيه الخليفة الآن، هل يفكر أنه يستحق هذا، أم أنه يفكر في مُلْكٍ ضاع على يديه، هل يفكر في خلفاء بني العباس؟ هل يفكر في أبنائه وإخوته الذين كانوا أفضل حظًّا منه فاختطفهم الموت سريعًا ولم يروا تلك نهاية المخزية لأبيهم.

فارقت روحه الحياة لتعلن سقوط آخر خلفاء بني العباس في بغداد.

***

منذ أن ذهب منصور إلى الخليفة وعينا فاطمة لا تجفّان، يحدثها قلبها أنها لن تراه ثانية، كما حدثها عندما ودعت أباها في مصر أنها لن تراه مرة أخرى ولكن أثناء ذلك كان منصور بجانبها يواسيها يشدُّ أزرها، ولكن من الذي يواسيها الآن؟!

وبينما هي على هذه الحال أتاها ولدها محمد يُخبرها في جزع أن عبد الرحمن محموم ودرجة حرارة جسمه مرتفعة للغاية.

نهضت فاطمة مسرعة إلى غرفة عبد الرحمن فتجده مستلقيًا في سريره لا يقوى على الحراك تضع يديها على رأسه فتجد درجة حرارته مرتفعة للغاية، تنادي أم زيد لتأتيها بماء تضعه على رأسه لعل درجة حرارته تنخفض.

تهزُّ فاطمة عبد الرحمن برفق وهي تبكي:

– عبد الرحمن ما الذي أصابك يا بني، كيف تشعر؟

يُحاول أن يفتح عبد الرحمن عينيه قليلًا وبصوت منخفض يكاد ألا يُسمع:

- أشعر بالبرد يا أمي.

فاطمة تنظر إلى محمد:

- اجلب لي مزيدًا من الأغطية بسرعة.

تأتي أم زيد بالماء وتنظر إلى فاطمة:

- ما الذي حدث؟

تبكي فاطمة:

- عبد الرحمن يُعاني من الحمى يا أم زيد.

تضع أم زيد يديها على صدرها:

- يا إلهي، لقد كان بصحة جيدة صباح اليوم.

- لا أدري ما الذي أصابه.

يأتي محمد بالأغطية فتضعها فاطمة على جسد عبد الرحمن وتضع قطعة من القماش بعد أن تُبلّلها بالماء على رأس عبد الرحمن، كانت القماشة سرعان ما تجفُّ من علو درجة حرارة ابنها، كان بكائها والماء يُبلّلان جبينه.

كانت بين الحين والآخر تهزُّ جسد عبد الرحمن حتى تتأكد أنه لم يذهب في إغماءة أخرى.

وضع محمد يديه على كتف أمه:

– لا تقلقي أمي سيكون بخير إن شاء الله.

تمسك فاطمة بيد محمد وتنظر إليه في حنان:

– ادعُ له، صلِّ من أجلنا، وادعُ الله أن يشفيه ويُرجع أباك سالمًا.

يحاول محمد أن يبدو متماسكًا ولكن دموعه تسقط رغم عنه:

– إن شاء الله يا أمي، الله لن يتركنا.

تبكي فاطمة:

يجب أن نأخذه للطبيب يعالجه، الحمى لا تهدأ وحالته سيئة.

– حسنًا أمي، ولكنني أنا من سيأخذه. فخروجك من البيت الآن يُشكل خطرًا كبيرًا عليك.

لن أدعكما تذهبان وحدكما سوف أذهب معكما والله يحفظنا.

وبينما هم كذلك يتطرق إلى سمعهما صوت بالخارج يقول إن الخليفة المستعصم بالله يأمر أهل بغداد بإلقاء السلاح.

أسرع محمد وفاطمة إلى الشرفة، فوجدا على مد البصر جند التتار في بغداد.

تهوي فاطمة على الأرض، لقد تأكدت الآن أن منصور قد قُتل.

إنا لله وإنا إليه راجعون، إنا لله وإنا إليه راجعون، أخذت فاطمة تُردِّد هذا وجسدها كله ينتفض.

ثم أخذت تضرب على صدرها بقوة وتبكي:

– يا منصور ماذا فعلت؟ بي ما الذي فعلته، كيف تتركني هكذا؟ كيف تترك فاطمة هكذا يا منصور؟ كيف فعلتها؟ ألا تعرف أن فاطمة لا تعرف العيش دونك؟ يا سوء غربتي من بعدك!

يجلس محمد في أرضية الشرفة ويبكي كما لم يبكِ من قبل.

ترى أم زيد هذا المشهد فتعرف أن منصور قد مات، تضمُّ فاطمة إلى صدرها:

– اثبتي يا بنيتي، اصبري ولكِ الجنة.

– كيف أصبر على ما لا طاقة لي به؟!

تبكي أم زيد:

– أسالي الله أن يعطيك صبرًا من عنده، يا رب.

تحاول فاطمة أن تُجفف دموعها، فمحمد وعبد الرحمن يحتاجان الآن رعايتها أكثر من أي وقت سبق، تذهب إلى محمد وتضمُّه:

– لا تبكِ، ولدي، أبوك كان رجلًا عظيمًا يجب أن تفتخر به، إنما نحن نبكي أنفسنا لأننا حُرمنا لقاءه.

تمسك بوجهه وتمسح دموعه:

– اذهب واغتسل وادعُ الله أن يرفع عنا البلاء.

يكف محمد عن البكاء:

– حسنًا أمي.

تمسك فاطمة رأسها تحاول أن تستجمع ما تبقى لها من قوة، هي فقط تريد أن تؤجل حزنها الآن حتى تخرج من تلك المحنة التي عصفت بها.

تضع يديها على جبين عبد الرحمن فتجد حرارته مرتفعة كثيرًا.

تهزُّه بقوة:

– عبد الرحمن ولدي هل تشعر بي؟

لا يرد.

فتسكب ماء على وجهه فيفتح عينيه ببطء ويتكلم كلمات غير مفهومة ثم يغلق عينيه مرة أخرى.

تصرخ فاطمة:

– عبد الرحمن استيقظ، ابني، أرجوك.

يأتي محمد وأم زيد مسرعين على صرخة فاطمة.

يسأل محمد بذعر:

– ماذا حدث أمي؟

بقلق شديد تجاوبه فاطمة:

– عبد الرحمن مريض جدًّا.

تقول أم زيد:

– هل ينبغي أن نحضر طبيبًا؟

فاطمة:

– لن يأتي طبيب لنا الآن.

ثم تنحني لتحمل عبد الرحمن وتُكمل:

– أنا سوف آخذه إلى الطبيب.

محمد:

– أمي، دعيني أذهب أنا به، أنا رجل البيت الآن.

– لا، أنت لن تبرح البيت،لا تتعب قلبي،يكفيني قلقي على أخيك سوف أذهب سريعًا.

– أمي من فضلك.

- محمد استمع لما أقوله لك جيدًا، سوف أذهبُ لطبيب يعالج أخاك لن يمكننا الذهاب معًا، يعلم الله ما يوجد بالخارج أنا سأتوخَّى الحذر، وأنت، كل ما أرجوه منك أن تحفظ نفسك جيدا. عدني أنك سوف تحافظ على نفسك حتى أعود.

يبكي محمد.

فاطمة تصر:

- عدني.

- أعدك أمي.

- أم زيد ضعي محمد نُصْبَ عينيكِ، لا تتركيه، أرجوك.

أم زيد:

- حسنًا، سيدتي لا تقلقي.

- أعطني قارورة ماء لعلي أحتاجها.

- حسنًا.

تودع فاطمة محمد وأم زيد وتنطلق في طريقها إلى الطبيب، وما إن تبتعد عن البيت بضع خطوات حتى تجد جيوش التتار تتعقب الناس في الشوارع ليقتلوهم.

تختبئ وراء شجرة وقلبها يكاد ينخلع من الرعب، تنظر من خلف الشجرة لترى هل ما زالت هناك جنود تتريون بالقرب منها، فتتسع عيناها، فلقد رأت جنود هولاكو يدخلون بيتها، تضع يديها على فمها لتكتم صراخها، ماذا يجب عليها الان أن تفعل، محمد بالداخل وعبد الرحمن بين يديها محموم.

تتساقط دموعها غزيرة وتنظر إلى السماء بتضرع وتدعو الله أن يحفظ ولدها.

***

7

بغداد 22 مارس 2003

ترتدي غفران عباءة زرقاء، وتتساقط دموعها غزيرة في صمت كأنها تخشى أن ينتبه أحد إلى بكائها، يجلس بجانبها طفل تبدو عيناه حزينتان جدًّا وبينما هم كذلك يقف الطفل، ويمد لها يديه فتمسك به فيمضي بها مسرعًا وهي تحاول اللحاق به حتى يتوقف بها عند حديقة غنَّاء.

تفتح غفران عينيها تعرف أنها كانت تحلم، تضع يديها على وجهها فتجد دموعًا على وجنتها، تحاول أن تنهض ولكنها لا تقوى على ذلك، تشعر بالعطش الشديد، تجد صعوبة في بلع ريقها.

هي لا تعرف كيف أتت إلى هنا، كل ما تتذكره أنها كانت تحاول أن تسأل بعض المارة عن أحوالهم في الحرب، ثم حدث قصف كثيف، تذكرت مشهد (علي) وهو يسقط أرضًا وينزف بغزارة.

أخذت غفران تبكي:

- يا إلهي، علي، ترى ما الذي حدث لك؟

سَمِعَت المآذن وهي تُؤذّن لصلاة الفجر، ووجدت باب الغرفة يُفتح ويتسرب بعض النور من بالخارج إلى داخل الغرفة وشاهدت سيدةً مُسنَّة في السبعين من عمرها تقريبًا، تدخل إلى الغرفة وتتجه إلى السرير الذي تنام عليه.

تنظر إلى غفران:

- هل استيقظتِ؟

- نعم.

- كيف حالك الآن؟

- الحمد لله، أشعر بالعطش.

تجلب لها الجدة كوبًا من الماء ثم تُمسك بيديها لتساعدها على الجلوس وتناولها الكوب، تضع يديها على جبينها:

الجدة بقلق:

- درجة حرارتك مرتفعة جدًّا، استريحي الآن، وسوف آتي لك بخافض للحرارة.

بصوت خافت تتحدث غفران:

– أين أنا؟

– أنا أم هاشم، جدة خالد، لقد أتى بك خالد البارحة هنا.

– أشعر بألم شديد في ساقي.

– لقد أُصبتِ في ساقك إصابة شديدة وكنتِ تنزفين بغزارة، ولكني نظفت لك جرحك جيدًا ووضعت عليه بعضًا من منقوع الأعشاب الطبية وربطته،سوف تُشفين قريبًا، ولكن عليك أن تتحملي قليلًا يا بنيتي.

تضع يديها على جبينها ثم تقول الجدة بقلق:

– درجة حرارتك مرتفعة جدًّا، استريحي الآن وسوف آتي لك بخافض للحرارة.

غابت الجدة حوالي نصف ساعة ثم أتت وأشعلت نور الغرفة.

أخذت تهز غفران برفق:

– استيقظي يا بُنيتي لتتناولي الدواء.

بصعوبةٍ استطاعت غفران أن تفتح عينيها.

تناولت قرصًا من الدواء ثم ناولتها الجدة كوبًا من الأعشاب:

– اشربي هذا سوف يساعدك كثيرًا،هو يعطي نتيجة رائعة في حالة الحمى.

بعد أن انتهت غفران من شرب الأعشاب. أعطتها الجدة غطاء إضافيًّا:

لأنك مصابة بالحمي فربما تشعرين بالبرد.

بصوت منخفض وعين دامعة تتمم غفران:

– أين خالد، ما الذي حدث لعلي؟

تبتسم الجدة:

– ارتاحي الآن وسوف يأتي خالد بعد قليل.

***

يستيقظ خالد وما زال يشعر بالإرهاق منذ ليلة أمس، عندما رأى غفران تسقط أرضًا لم يعرف ما الذي أصابه، كان يعتقد أنها ماتت، تذكر كيف صار يهزها بقوة حتى يتيقن من كونها ما زالت على قيد الحياة، وكم اطمأنّ عندما فتحت عينيها قليلًا، رأى جرحًا في قدمها ينزف بشدة ولما كان بيت جدته أقرب من المشفى ذهب بها إلى هناك، ربما كان عليه أن يذهب بها إلى المشفى مباشرة ولكن جدته يلقبونها هنا بـــ (طبيبة الحي).

يذهب خالد إلى المطبخ ليجد جدته تعد طعام الإفطار،ابتسمت له:

– هل استيقظت؟

- نعم جدتي، كيف حال غفران؟

تخفض الجدة رأسها قليلًا:

- تُعاني الحمى.

يتحدث بقلق خالد:

- هل يجب أن آخذها إلى المشفى؟

- لا، لقد أعطيتها خافضًا للحرارة وكوبًا من الأعشاب سوف يساعدها كثيرًا وأعد لها الآن عصيدة.

- حسنًا، جدتي، سوف أذهب لأطمئنَّ عليها.

يطرق خالد باب الغرفة ثم يدخل فيجد غفران نصف نائمة، يقترب منها:

- كيف حالك الآن؟

تهز رأسها بضعف ولا تستطيع التحدث.

يضع خالد يديه على جبينها فيجد حرارتها ما زالت مرتفعة:

- حرارتك مرتفعة جدًا، سوف آتي لك بكمادات.

يأتي خالد بوعاء به ماء وقطعة من القماش، يُبلل القماش بالماء ويضعها على جبهة غفران ويضع أخرى على كلتا يديها ثم يبدلها بأخرى عندما تجف.

حتى تدخل جدته الغرفة وتنظر إلى خالد:

- كيف هي الآن؟

- ما زالت حرارتها مرتفعة.

تتحسس جدته جبهة غفران:

- هي أفضل بكثير من الليلة السابقة،دعينا نطعمك هذه العصيدة، حاول أن تساعدها يا خالد على الجلوس.

يساعدها خالد في النهوض قليلًا ويضع وساده لتسند ظهرها عليها.

برفق تبدأ الجدة في إطعامها:

- هذه عصيدة طعمها يمكن أن يكون مُرًّا قليلًا ولكنها سوف تساعد جرح على أن يُشفى سريعًا وتعوضك عن كمية الدماء التي نزفتِها بالأمس.

بعد أن تنتهي غفران من العصيدة تبتسم لها الجدة:

- الآن دعينا نُلقِ نظرة على جُرحك.

تكشف الجرح وتنظر إليه ثم تنظر إلى غفران:

- سوف يتحسن قريبًا إن شاء الله، سوف أضع لك ضمادة أخرى.

تنظر إلى خالد:

– خالد اجلب صندوق الأدوية وبعضًا من الشاش.

ثم تبدأ في تنظيف الجرح وتضع عليه منقوع بعض الأعشاب ثم تربطه بمزيد من الشاش.

تتأوه غفران من الألم:

– فتعطيها الجدة خليطًا يُشبه العجينة ولكنه متماسك أكثر:

– امضغي هذا سوف يسكن الألم إن شاء الله، والآن استريحي قليلًا حتى يستعيد جسدك عافيته.

ثم تنظر إلى خالد:

– دعنا ننصرف الآن، فهي بحاجة إلى الراحة.

بصوت خافت تتحدث غفران:

– خالد، كيف هو علي؟ هل هو بخير؟

– لا أعرف شيئًا عنه للأسف، لقد جئتُ بكِ إلى هنا مباشرة بعد وقوع الحادث.

تتساقط دموع غفران:

– هل يمكن أن تبحث عنه رجاءً؟

– سأفعل ما بوسعي، ارتاحي أنتِ الآن.

يغلق خالد باب الغرفة بعد أن ينصرف هو وجدته.

لا يعرف حقًّا ما الذي أصاب عليًّا، ولكنه لا يظنُّ أنه بخير إطلاقًا، فلقد كان في مرمى الصواريخ مباشرةً، وهو رآه غارقًا في بركة من الدم، لم يستطع أن يخبر غفران بذلك، فهي لن تتحمل مزيدًا من الأخبار السيئة وهي في تلك الحالة.

ينتقل ببصره إلى شاشة التلفاز، ولكن لا جديد يأتي، الحرب تسير على نفس الوتيرة.

وبينما تتوالى الأخبار هناك سؤال ما زال يلحُّ على خاطره: هل ننجح حقًّا في التفوق على أمريكا وبريطانيا معًا؟

***

تستيقظ غفران ولا تعرف كم مضى عليها من الوقت. تحاول بصعوبة أن تجلس حتى تنجح في ذلك، تتحس الجرح في قدمها فتجده مُغطًى بالشاش، تتساءل: هل جدة خالد طبيبة حقًّا؟ وما الذي أتى بها الى هنا؟!، هي تتذكر أن خالد كان قريبًا منها، وقتها شعرت أنها لقيت حتفها بالفعل فتحت عينيها قليلًا لتجد وجه خالد، لم تنسَ نظرته في تلك اللحظة كانت مزيدًا من السعادة والخوف، ولم تشعر بما حدث بعد ذلك إلى أن وجدت نفسها في ذلك المنزل.

تسمع صوت طرقات على الباب، ثم يُفتح، فتجد خالدًا يبتسم لرؤيتها جالسة:

- كيف حالك الآن؟

- بخير الحمد لله.

- الحمد لله، يبدو أنكِ أفضل.

- شكرًا لك يا خالد على كل ما فعلته.

- وما الذي فعلته؟! الأهم أن تستعيدي عافيتك.

- هل عرفت شيئًا عن علي؟

- للأسف لم أستطع العثور على أي معلومات عنه.

تبكي غفران:

- أنا قلقة جدًّا، لا أعرف ما الذي أصابه؟ كل ما رأيته قبل أن أفقد الوعي، أنه يسقط أرضًا وكانت الدماء تنزف من جسده.

- سأحاول أن أبحث لك عنه، ولكن الآن لا يُمكنني أن أترك جدتي فهي غاضبة جدًّا،وأقسمت على ألا أخرج إلا في حالة الضرورة القصوى، عندما رأتني بالأمس كاد أن يُغشى عليها، فأنا كل ما تبقى لها.

- ما هذه الضجة التي بالخارج؟

– إنهم بعض المصابين في الحرب يتلقون العلاج.

– هل هذا مستشفى ميداني؟

– يمكنكِ أن تقولي هذا.

– هل جدتك طبيبة؟

– إلى حد ما، إن قصتها يطول شرحها، ربما تخبرك بها في وقت لاحق، استريحي الآن فأنت ما زالت مُتعبة.

– حسنًا.

شاهدت الجدة خالدًا وهو يخرج من غرفة غفران:

– كيف حالها الآن؟

– أفضل الحمد لله.

– فلتساعدني الآن، أبو حامد وولده أصيبا، كلٌّ منهما بشظايا جراء قصف من الأمريكان، الله لا يعمر بيتهم أبدًا.

– يا الله، سوف أحضر لك صندوق الأدوية من الداخل وآتي فورًا.

تسرع أم هاشم نحو الصالة تحاول أن تخفف من حزن أم حامد وتربت على كتفها:

– تماسكي قليلًا يا أم حامد، إصابتهم ليست خطيرة، فلنحمد الله أنه لم يُصِبهم مكروه أكثر من هذا.

من بين دموعها تمسك أم حامد بيديها:

– الله يعطيك العافية يا أم هاشم.

يأتي خالد بصندوق الأدوية ويحاول أن يساعد جدته في تطهير جرح أبي حامد ويسأله خالد:

– كيف أُصبت يا أبا حامد؟

– لقد ألقوا علينا صاروخًا يا بني ونحن عزل، أهذا هو الإعمار الذي تتحدث عنه أمريكا.

– كيف هي الحرب الآن؟

– الله يحفظ هذا البلد يا ولدي، الأمريكان لن يأتوا بخير أبدًا.

***

تستيقظ غفران لتجد أم هاشم تجلس بجوارها.

الجدة بابتسامة منهكة:

– استيقظتِ؟

– نعم.

- لقد ارتفعت درجة حرارتك الليلة الماضية بالأمس فكنت أضع لكِ كمادات.

تدمع غفرن:

- شكرًا لكِ، آسفة على تعبك..

تشيح بيديها:

- لا تعتذري، ومن المسئول عمًّا أنتِ عليه الآن، أنتِ حتى لست عراقية حتى تعاقبك أمريكا.

- إنه عملي هذا الذي يعاقبني.

تتكلم الجدة بصوت منخفض:

- لا تعملي في هذه المهنة، اتركي ذلك للرجال،وما فائدة الرجال إذا لم يعملوا مثل تلك الأعمال؟

تبتسم غفران:

- سأفكر في الأمر.

يدخل خالد إلى الغرفة وينظر إلى وجه غفران المبتسم:

- حسنًا، يبدو أنكِ تحسنت كثيرًا.

غفران:

- الحمد لله.

تنهض الجدة:

– حسنًا، سوف أذهب لأقوم بتحضير الطعام.

يجلس خالد على الكرسي المقابل للسرير الذي تجلس عليه غفران.

غفران:

– شكرًا لكم.

خالد:

– لا تُكثري من الشكر، نحن لم نفعل شيئًا يُذكر.

– كيف ذلك؟ أنا لم أجد أحدًا يهتم بي منذ زمن كما فعلتم، أنت لا تعرف قيمة ما تفعلونه، فأنتم لا تعرفونني حقًا وتهتمون لأمرى هكذا.

– أي شخص كان سيفعل هذا وأكثر.

– أنت لم تقابل أشخاصًا سيئين إذًا، لا تعرف كيف يمكن أن يتركك الآخرون في أشد لحظات ضعفك، لا تعرف شعور أن تُهمل من أقرب الأقربين إليك، كيف يتم ببساطة تجاهلك.

بأسى يقول خالد:

– هل كانت حياتك محبطة إلى تلك الدرجة؟

– ليست محبطة، ولكني قابلت أشخاصًا محبطين فحسب.

– لا عليك، ابتعدي عنهم في المرة القادمة.

تبتسم غفران:

– هل تظن ذلك، أشعر أني أمتلك رادارًا خاصًّا يتعقبهم.

يبتسم خالد:

– هل نحن محبطون إلى تلك الدرجة؟

تتسع ابتسامة غفران:

– يبدو أن الرادار الخاص بي تعطل منذ أن وصلت إلى العراق.

– حسنًا، يكفينا إحباط الحرب.

تتساءل غفران بجدية:

– ما آخر أخبار الحرب؟ ما آخر التطورات؟

– هناك 5 قتلى من العراقيين في الأعظمية والصحاف أعلن عن أسر أمريكيين وبريطانيين، وهناك مقتل جنود أمريكيين، وأمريكا وصلت إلى شمال العراق، وتم إلقاء قنابل عنقودية على حي سكني بالبصرة.

– يا إلهي، الله معكم.

يكمل خالد:

– ها نحن في اليوم السادس منذ بداية الحرب والواضح للعيان أن أمريكا وبريطانيا تواصل تقدمها داخل الأراضي العراقية.

– الله ينصركم.

ويسود الصمت الغرفة ليبقى سؤال يدور في الأذهان:

إلى متى ستصمد العراق ضد هذا العدوان؟ أم هي مسألة وقت على سقوط بغداد؟

***

لا تعرف غفران كيف مرت هذه الفترة عليها وهي في بيت جدة خالد بعد أن أُصيبت في قدمها اليسرى إصابة بالغة، فلقد مَرَّ أكثر من أسبوعين لها هنا في فترة تعتبر من أصعب الفترات التي يمكن أن تمر بها، لا يخفف ثقلها عليها إلا حسن ضيافة خالد وجدته لها، لم تشعر أنه مُرحَّب بها هكذا في مكان مثلما شعرت في هذا البيت،به طاقة من الحب والصفاء تعوضها قليلًا عما شعرت به في السنوات السابقة وكأنها تشعر أنها هدية السماء لها في هذا الظرف الصعب الذي تمر به، فعلى الرغم من هذا الظرف الاستثنائي الذي تمر به بلادهم لم يتهاونوا في تقديم أقصى مساعدة ممكنة لها، كيف يمكن لأشخاص وبلادهم تسقط أن يقبلوا أن يهتموا بشخص غريب عنهم بهذا الترحيب، هم يسجلون معنى آخر للقرابة، فليس القريب هو من تربطك به صلة

دم، القريب هو من يهتم لأمرك، هو من يُعطي بغير أن يتساءل عن المقابل لعطائه، القريب هو من يخشى حقًا فقدانك.

خرجت غفران إلى الصالة فوجدت الجدة تجلس على الأريكة تضع إحدى يديها على خدها وتبكي.

تسرع غفران إليها بقلق:

– ماذا حدث جدتي؟

– يبدو أن بغداد في طريقها للسقوط يا غفران، الكل يكذب، بوش يكذب والعالم العربي يكذب، وتقف العراق وحدها في هذا الجحيم.

أخذت غفران تربت على كتفها:

– يا الله، لا تبكي جدتي، سيأتي الفرج قريبًا إن شاء الله.

– ما يبكيني ليست الحرب فقط، بل لأنهم يقولون إن هناك عراقيين فرحون بوجود الأمريكان داخل الأراضي العراقية، كيف يمكن أن يفرحوا بهذا؟ ألا يشعرون بالعار؟

– لا تصدقي ما يُقال في وسائل الإعلام،فهي لا تحمل كل الحقيقة بالتأكيد.

– ولكن حقيقة أن بغداد سقطت لن تُمحى يا بنيتي.

تحاول غفران أن تغير مجرى الحديث لتهدئها قليلًا:

– ولكن أخبريني جدتي، كيف أنتِ بارعة هكذا في الطب؟

– هذا علم توارثته عائلتنا منذ مئات السنين على مدار الأجيال.

– هل أنتم حريصون عليه إلى هذا الحد؟

– إنه نذر.

تردد غفران بدهشة:

– نذر؟!

– نعم، هذه حكاية طويلة نتناقلها عبر الأجيال، منذ أكثر من سبعمائة عام عندما دخل التتار بغداد، وكأن بغداد مبتلاة بالسقوط، كانت هناك امرأة تدعى (فاطمة) هذه المرأة جدتي الكبرى نذرت نذرًا يومًا ما وعلى تتابُع أجيالنا أخذنا عهدًا بالوفاء به حتى يوم الدين.

– ما حكاية هذا النذر؟

– إنها حكاية طويلة.

وبدأت الجدة تقصُّ على غفران حكاية فاطمة.

***

8

بغداد، صفر 656 هـ

لو أنني ذهبتُ إلى البيت ثانية فسأفقد محمدًا وعبد الرحمن معًا، ولو ذهبت إلى الطبيب فلربما قُتل محمد، ولكن يمكن أن أنقذ عبد الرحمن، يا رب، ما الذي يجب عليَّ أن أفعله؟ هكذا أخذت فاطمة تُحدثُ نفسها وهي تبكي..ثم رفعت يديها إلى السماء وأخذت تدعو:

(يا الله، بحق كل شيء صالح فعلته خالصًا لوجهك الكريم بحق موت زوج وهو عني راضٍ، بحق كل شيء صالح فعله زوجي خالصًا لوجهك الكريم. نحن لا حول لنا ولا قوة، فاحفظ محمد ابني سالمًا حتى أعود وأشفي عبد الرحمن، يا الله هو كل ما تبقى لدى فاحفظهم لي).

أصابتها السكينة بعد الدعاء ثم ألقت نظرة أخيرة على بيتها من بعيد، ورفعت يديها تجاهه.

(أستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه).

ثم نهضت مسرعة تحمل عبد الرحمن واختفت بعيدا

كان الطريق إلى الطبيب بعيدًا جدًّا عن بيتها الذي كانت تقطن به، وكان السير في شوارع بغداد يعدُّ ضربًا من الجنون، فقد كان التتار موجودين في كل مكان ببغداد يسلبون وينهبون ويقتلون ويدمرون، كانوا يتعقبون المسلمين في كل شارع من بغداد وعبد الرحمن بين يديها درجة حرارته مرتفعة جدًّا سكبت عليه بعضًا من الماء الذي كان لديها لعل حرارته تنخفض قليلًا ولكنه ظل كما هو.

وبينما كانت تجري مسرعة ترى بعض جنود التتار وهم يذبحون رجلين أمامها، لا تدري ماذا تفعل؟ أخذت تلتفت حولها لعلها تجد مكانًا يمكنها أن تختبئ فيه، فلم تجد أمامها سوى بيت، أخذت تطرق الباب بقوة وعينها على جنود التتار الذين يبدون أنهم سوف يتجهون نحوها، لا تعرف ماذا تفعل؟ تطرق الباب بخوف شديد وهي تخشى أن يراها التتار، وبينما هي على ذلك الحال يُفتح الباب لتجد يَدًا تجذبها إلى الداخل.

***

تدلف فاطمة داخل البيت، لترى سيدة في الأربعين من عمرها تقريبًا تكلمها بصوت منخفض:

– اتبعيني رجاءً.

تمشي فاطمة وهي تحمل عبد الرحمن خلف السيدة وهي تنظر إلى البيت الذي يبدو عليه أن صاحبه من الأثرياء.

تشعل السيدة سراجًا وتنظر إلى فاطمة:

– انزلي هذا الدرج خلفي.

تنزل فاطمة الدرج خلف السيدة حتى تصلا إلى غرفة تتضح ملامحها على ضوء السراج الذي تشعله السيدة لتجد رجلًا مُسنًّا في حوالي السبعين من عمره يجلس على كرسي وأمامه توجد منضدة صغيرة وقبالته يوجد سرير ويوجد بعض الفرش والوسائد تُغطي أرضية الغرفة، وبالغرفة ركن يُشبه المطبخ به طعام وماء.

وضعت السيدة السراج جانبًا على رفٍّ فوق المنضدة، ونظرت إلى فاطمة وقالت:

– اجلسي من فضلك.

جلست فاطمة على الأرض ووضعت ابنها بجانبها وتحدثت بقلق:

– لو سمحتِ، ابني مصاب بالحمى وأنا في طريقي للذهاب إلى الطبيب، فهل أجد عندك بعض من الماء أصنع له بعض الكمادات.

نهضت السيدة مُسرعةً تحضر لها الماء، ونظر الرجل المسن نحو فاطمة:

- وأين زوجك يا ابنتي؟ لِمَ تخرجين وأنتِ تعرفين أن كل من يخرج يُقتل؟

تنظر له فاطمة بعين دامعة:

- لقد قُتل.

- لا تحزني، ابنتي، كلنا زائلون، مَن لم يمت بالسيف مات بغيره

أحضرت لها السيدة وعاء به ماء،وأحضرت لها قطعة من القماش، فبدأت فاطمة على عجلٍ تسكب الماء على وجه ابنها الذي كان يتأوَّه بشدة وهي تضع يديه في وعاء الماء مباشرة وتحدثه:

- اصمد، ابني، أرجوك اصمد معي قليلًا.

تتأثر السيدة لرؤية فاطمة هكذا، فتقول لها:

- سوف أُحضر له مشروبًا دافئًا يساعده قليلًا حتى يصل إلى الطبيب.

ما تزال فاطمة تصنع كمادات المياه الباردة حتى تُعطيها السيدة كوبًا به مشروب دافئ وتقول لها:

- حاولي أن تسقيه إياه حتى لا يعاني الجفاف بسبب الحُمى.

أخذت فاطمة المشروب من يد السيدة وأخذت تحاول أن تسقيه لابنها الذي كان يرفض أن يشرب أي شيء، وبعد إلحاح من فاطمة والسيدة عليه شرب الكوب بالكامل.

أحضرت لها السيدة أغطية:

– فلتقضِ الليل هنا، فالمكان غير آمن تمامًا بالليل، جيوش التتار تملأ بغداد، ولو رأوك لقتلوكِ أنتِ وولدك.

تأخذ فاطمة منها الأغطية:

– شكرًا لك.

كما تغرب الشمس فيتشح العالم بالسواد، كذلك شعرت فاطمة، أحست أن شمسها غربت بموت منصور حتى قمراها اللذان يضيئان ليلها أحدهما في خطر والآخر لا تعلم أما زال قلبه ينبض أم رحل إلى والده؟

دموعها تتساقط بغزارة،تضع يديها على فمها حتى لا توقظ أحدًا، كيف يمكن أن تفقد عالمها هكذا في لحظة، أهذا ممكن؟! كيف يمكن لقلبها أن يتحمل هذا؟ كيف تحظى وحدها بهذا العناء؟ عندما مات أبوها أحسَّت أن الكون ضاق بها، ولكنها لم تشعر يومًا أن الكون من الممكن أن يضيق حتى بأنفاسها، على الأقل عند موت والديها أخذت حقها الانساني في الحزن، أخذت حظها من المواساة ولكن الآن كيف

لها أن تستسلم لحزنها وولدها على حافة الخطر؟ أليس من القسوة أن يُطلب منا أن نظل أقوياء في أكثر لحظاتنا ضعفنا؟ أن نفقد الأحبة في أوقاتنا الصعبة؟ أن نفقد كل شيء هكذا دفعة واحدة؟ لماذا يشقى الناس إذًا في تجميع الأموال والذهب والفضة حتى يفقدوها؟ ألم يتعلموا أننا في الحقيقة مهما نمتلك لا نملك شيئًا، نحن لا نملك أنفسنا حتى نملك أشياء أخرى، أهكذا يهذبنا الله بطريقته المثلى؟ حتى نعرف سبب نشأتنا وسر وجودنا على الأرض، تذكرت أنها قد سمعت خطبة لشيخ يقول فيها إن الإنسان خليفة الله في الأرض ومسئولية إعمار الأرض تقع على عاتقه، تساءلت: وأنى لهذا الخراب الذي يحدثه التتار في بلادهم أن يُعمّر؟ يجب أن نعمر أنفسنا أولًا، فأنفسنا خراب بالكامل.

ثم رفعت يديها تدعو الله:

(يا الله، إني لا أملك حتى نفسي، ولكن فِراق أحبتي يعذب قلبي فأعني على تحمُّل أمر فراقهم، وأنزل عليَّ صبرًا).

***

بدأت خيوط الضوء تتضح من ناحية الدرج،فتحت فاطمة عينيها، فهي لم تستطع النوم حتى ساعة متأخرة من الليل، وضعت يديها على جبهة عبد الرحمن فوجدت حرارته ما تزال مرتفعة، أخذت تسكب بعض الماء على وجهه فتأوّه عبد الرحمن من الألم، هو لا يحب الماء،

يجعله يشعر بالبرد، ورأسه كان يؤلمه كثيرًا، أمسك رأسه بيديه، فقالت له فاطمة بأسًى:

- هل يؤلمك كثيرًا؟

في ضعف يرد عبد الرحمن:

- نعم، أمي.

ثم يكمل:

- أمي، لماذا نحن هنا؟

- نريد أن نذهب إلى الطبيب كي يعالجك، وجئنا إلى هنا كي نستريح قليلًا، وسنذهب الآن.

يغمض عينيه:

- حسنًا، أمي فلنذهب إلى الطبيب أشعر بالتعب.

تضمُّه فاطمة إليها:

- لا تخف، سيزول تعبك عن قريب إن شاء الله.

تستيقظ السيدة وتنظر إلى فاطمة:

- كيف حالك الآن؟

تومئ فاطمة برأسها:

- بخير الحمد لله، سوف أمضي الآن حتى أستطيع أن أذهب إلى الطبيب سريعًا.

- هل ما زالت الحُمى بجسده؟

- نعم.

- الله يشفيه ويريح قلبك.

- يا رب.

- سوف أذهب الآن.

- انتظري.

تذهب السيدة إلى الركن الذي يُمثل المطبخ بالغرفة وتُعطيها قارورة ماء وبعض الأطعمة.

ثم تكمل:

- خذي هذا يساعدك في طريقك.

ترد فاطمة شاكرة:

- شكرًا، سوف آخذ الماء فقط، جزاك الله خيرًا.

توصلها السيدة إلى باب البيت وتمسك يديها:

- في رعاية الله وحفظه وأمنه.

تبتسم لها فاطمة ثم تسرع الخطى في الاتجاه الذي يؤدي إلى بيت الطبيب.

وفي طريقها إلى ذلك تحاول أن تختبيء قدر الإمكان من جنود التتار، يفزعها منظر الشوارع وقد امتلأت بالدماء والجثث ملقاة على قارعة الطريق، تحاول أن تتحاشى النظر، ولكن المنظر يفرض عليها أن تراه، فبطول بغداد وعرضها تجد هذه المشاهد التي يصبح حتى البكاء معها مبتذلًا.

عند بداية اقترابها من بيت الطبيب تشعر بالتعب الشديد، فقدماها لم تعدا تحتملان أن تمضي أكثر من ذلك، لم تعد تشعر بيديها، فهي تحمل عبد الرحمن منذ فترة طويلة، جلست لتستريح تحت شجرة ووضعت عبد الرحمن بجانبها، وحاولت أن تلتقط أنفاسها التي كانت تخرج بصعوبة رغما عنها، ولم تلبث أن تستريح حتى نظرت أمامها فوجدت جثة الطبيب ملقاة بجانب بيته.

***

اتسعت عيناها من عظم المفاجاة ودقّقت النظر، ولكنها تعرفه جيدًا، إنه هو، فقد كان صديق زوجها، ويأتي إلى بيتهما كثيرًا لا يمكن أن تخطئه، لكن لا يمكن لهذا أن يحدث، لا يمكن أن تتحمل هذه الأخطار وتترك محمدًا هناك لتجد الطبيب قد قُتل، ما هذا الهراء الذي تعيشه، أحست فاطمة أن جسدها كله يؤلمها شعرت بالبرد الشديد،

وأحست أن قدرتها على أن تقاوم هذا الإحساس أصبحت منعدمة تمامًا فاستسلمت وأغمضت عينيها لتغيب عن الوعي.

***

فتحت فاطمة عينيها لتجد نفسها نائمة على سرير في غرفة يبدو من أساسها أنها متواضعة قليلًا،ولكنها منظمة لحد كبير، تلتفت لتجد عبد الرحمن نائمًا بجوارها، تحاول أن تنهض ولكنها تجد صعوبة في ذلك، جسدها كله يؤلمها، تضع يديها على جبهة عبد الرحمن فتجد آثار الحمى بدأت تقلُّ إلى حد ما، تسعد لذلك، ولكنها لا تعرف ما الذي أتى بها إلى هذا المكان،آخر ما تتذكره مشهد رؤيتها لجثة الطبيب وشعورها بالتعب الشديد، لا تذكر شيئًا بعد هذا، تجد باب الغرفة يفتح ليدخل رجل نحيف في حدود الستين من عمره، ويحمل صينية عليها إناء به شراب، يرى فاطمة وقد استيقظت، يقول لها:

- كيف حالك الآن؟

تمتم فاطمة:

- الحمد لله، ولكن أين أنا؟ ومن أنت؟

يضع الرجل الصينية التي يحملها على منضدة بجانب الغرفة:

- أنا أُدعى عبد الملك،لقد كنتُ مختبئًا في حديقة منزلي، فقد دخل التتار البيت وسرقوا ما فيه، وبينما أنا مختبئ هكذا وجدتك أنتِ

وولدك مغشيًّا عليكما تحت الشجرة،فقمت بنقلكما داخل منزلي حتى لا تُصابا بالأذى، فلا أظن أن التتار سيأتون إلى هنا مرة أخرى.

– شكرًا لك.

يبتسم عبد الملك ويأتي بالإناء.

– اشربِي هذا وسوف أوقظ ولدك، وأُشربه إياه، هذا يُعطي نتائج فعالة في حالات الحُمّى.

ترتشف فاطمة المشروب على مهل بينما يساعد عبد الملك ابنها عبد الرحمن في أن يشرب قليلًا من الإناء.

***

تنتهي فاطمة فتوجّه نظرها إلى عبد الملك:

– هل أنت طبيب؟

– لم أدرس الطب،ولكني على علم بما يمكن أن تصنعه الأعشاب، استريحا قليلًا الآن.

– هل عبد الرحمن بخير؟

– سيصير بخير إن شاء الله، حالته أفضل بكثير مما كان عليه.

أغلق الباب خلفه ولم تصدق فاطمة أنها تعرضت هي وابنها إلى معجزة للتوّ.

لقد انشغل طوال عمره في تحصيل العلم، كان ينتقل بين البلاد يبحث عن كل ما يمكن له أن يتعلمه، كان كثير الترحال، شغوفًا بالعلم، كان يشعر أن عقله بحاجة إلى مزيد من التنوير، ولكن في أثناء انشغاله بهذا لم يدرك أن الوقت يمضي بهذه السرعة، عندما كان مختبئًا في الحديقة في أثناء مهاجمة جنود التتار لبيته لم يدرك أنه لم ينقل ما تعلمه لأحد بعد الآن، وجد أنه كان على وشك الموت وعلمه سيُدفن معه،ستضيع سنوات عمره هباء إذا لم ينقل علمه، فقد أحزنه كثيرًا أن الوقت قد فات، فمن الذي يريد أن يتلقى العلم الآن، أخذ يلوم نفسه على انتظاره كل هذه المدة من غير أن يجد تلميذًا نجيبًا ينقل له علمه، أصابه هذا الأمر بالهم والكدر فأخذ يتذكر كم هي المشاق التي تحملها في سبيل العلم! كيف انشغل به حتى أنه لم يتزوج! فقد كان يسافر كثيرًا ولا يقيم في بلد بعينه حتى انتهى به الحال في بغداد.

وبينما كان عبد الملك على تلك الحال، وجد فاطمة أمامه تسأله عن مكان الماء فعبد الرحمن يشعر بالعطش.

أشار لها عن مكان الماء فأخذت كوباً منه وشكرته وذهبت إلى داخل الغرفة.

أخذ عبد الملك يفكر، هل يمكن أن ينقل لها بعض علمه عن الأعشاب؟ أنواعها؟ وفوائدها؟ وكل ما يتعلق بها؟

ثم عقد العزم، إنه غدًا سيحاول أن يقنعها بذلك.

استيقظت فاطمة وابتسمت لرؤية عبد الرحمن وقد تحسَّن كثيرًا،

سألها عبد الرحمن بعفوية:

– أمي، أين نحن؟

– نحن في بيت الطبيب الذي عالجك.

– ولماذا لم يأتِ أبي معنا؟ هل لم يَعُد بعد؟

بكت فاطمة:

– نعم إنه لم يعُد بعد.

– وأين أخي محمد؟

– في البيت بانتظارنا.

– هيا فلنذهب إليه.

يجذب فاطمة من يديها.

تمسك بيديه:

– ليس الآن، هناك جنود أشرار يجوبون الشوارع من وجدوه حيًّا يقتلونه.

– ولِمَ يقتلونه؟

– لأنهم أشرار.

- ومتى يمكننا الرحيل؟

- لا أدري يا ولدي متى يمكننا الرحيل.

ينطلق عبد الرحمن خارج الغرفة وتلحق به فاطمة فيجد عبد الملك يجلس على كرسي بصالة البيت فيتوقف.

يبتسم عبد الملك:

- تعالَ، لا تخف.

يقترب منه عبد الرحمن بحذر، يُقبِّله عبد الملك:

- هل أنت بخير الآن؟

- نعم أنا بخير.

يقولها ثم يمضي مُسرعًا ليقف بجانب فاطمة التي تقول لعبد الملك:

- جزاك الله خيرًا سيدي، لا أعرف ما الذي يُمكنني فعله حتى أعبر عن شكري.

يسأل عبد الملك فاطمة باهتمام:

- هل تستطيعين القراءة والكتابة؟

- نعم.

- هل يمكن أن تُسدي لي معروفًا؟

- بالطبع.

- أنا شيخ كبير أتممت الستين من عمري، وأمضيت سنوات عديدة في تحصيل العلم وسافرت من أجله إلى بلاد بعيدة، والآن أشعر الآن بدنو الأجل، فالله أعطاني فرصة بأنني لم أمت بعد الآن على يد التتار، وحتى وإن لم يقتلني التتار سأموت بحكم المرض فأريد أن أعلمك جزءًا مما قضيتُ حياتي فيه حتى يتعلمه الناس من بعدي، هل تقومين بذلك؟

- إنه شرف لي.

- حسنًا، فلنبدأ من الآن، التتار في جميع أنحاء بغداد، ربما عليك أن تتمهلي قليلًا في العودة إلى بيتك حتى يصبح الوضع آمنًا أكثر وفي أثناء ذلك سأقوم بتعليمك جزءًا مما تعلمته.

***

ومضى أسبوعان وفاطمة تنهل من علم أستاذها/ عبد الملك الذي كان حريصًا جدًّا أن يعلمها كل شيء،كان الأمر صعبًا عليها في بداية ولكن مع التعود والصبر أصبح الأمر أيسر قليلًا، عرفت فاطمة كم كان جهلها كبيرًا؟كيف كانت تعيش هكذا وهناك أناس ينفقون عمرهم بأكمله في تحصيل العلم.

معنى جديد للحياة بالنسبة إليها.

انتابها شعور مريح أن الله يبعث لها إشارات عن الطريق الذي يجب أن تمضي فيه بعد أن وصلت حياتها لمفترق طرق.

ولكن هذا اليوم تشعر بالحزن كثيرًا، فأستاذها يشعر بالتعب منذ أيام وصحته تتدهور بشكل سيئ، واليوم لم يخرج من غرفته.

طرقت فاطمة باب الغرفة ثم دلفت إلى الداخل فوجدت أستاذها عبد الملك مريض جدًّا ولا يقوى على الحراك.

بخوف تقول له فاطمة:

– أستاذي ماذا أفعل لك؟ هل لديك وصفة.

بصعوبة يرد عبد الملك:

– هذا يوم لا تنفع فيها وصفات.

تبكي فاطمة:

– لا تقل ذلك أرجوك، سوف تُشفى بإذن الله.

– فاطمة عديني ألا تُهملي ما علمتُك إياه.

– أعدُك، سيدي، لا تقلق، سأعمل بهذا العمل ما حييت.

– لا تجعليه يقف عندك، علميه لغيرك، أرجوك.

– حسنًا، سيدي، أعدُك أمام الله أن أفعل ذلك، كن مطمئنًا.

يومئ رأسه بهدوء ثم يسقط رأسه جانبًا ويغلق عينيه.

تهزه فاطمة بخوف:

– سيدي، سيدي.

فلا يرد، فتهز بقوة أكثر:

– سيدي، سيدي.

تصرخ فاطمة وهي تبكي:

– سيدي، سيدي.

يدخل عبد الرحمن مسرعًا:

– أمي، هم يعلنون أن التتار رحلوا من بغداد.

– ماذا؟

– هم يعلنون أن من يخرج فهو آمن.

تغطي فاطمة وجه أستاذها عبد الملك وتدعو له بالثبات، ثم تخرج لتجد أي أحد يساعدها على دفنه فيرعبها ما تجد.. الشوارع ممتلئة بالدماء، لون الشوارع تحول إلى اللون الأحمر، الجثث تملأ الشوارع، تحمل فاطمة عبد الرحمن الذي صرخ فزعًا، المشهد كان أكبر من أن يستوعبه أحد ويصدقه، مئات الآلاف من الجثث في الشوارع، وفوق سطوح المنازل، حتى كانت الدماء تسيل بكثرة من ميازيب المدينة، وكانت الأدخنة تتصاعد من المنازل والخراب يَعم بغداد بأكملها.

أخذت فاطمة تعدو وهي تحمل عبد الرحمن نحو منزلها لتطمئن على محمد، حتى وصلت إلى بيتها فوجدته خرابًا الكامل.

دخلت تُنادي محمدًا، وتفتش بالغرف عنه، ووجدت جثة أم زيد ملقاة بإحدى الغرف،فأخذت تصرخ وتبكي، فتناهى إلى سمعها صوت ضعيف يأتي من بعيد،تتبعته لتجده يأتي من القبو فتسرع لفتحه، فتجد محمدًا يقبع بالداخل، وقد خسر نصف وزنه تقريبًا وجسده كله ينتفض.

فأخذت الدموع تنهمر منها بغزارة وضمته إليها:

- محمد لقد عادت أمك يا ولدي.

أخذ محمد يبكي بكاء شديدًا:

لقد أوفيتُ بوعدي، أمي.. لقد أوفيتُ.

***

9

بغداد، أبريل 2003

بعد أن انتهت الجدة من رواية قصة فاطمة لغفران، أخذت غفران تمسح دموعها التي تساقطت تأثُّرًا بما حدث لفاطمة. ثم قالت للجدة:

– فاطمة تلك بطلة،كيف لامرأة مثلها في تلك الظروف أن تتلقى العلم وتعد ذلك الوعد الأبدي!

الجدة:

– هي شعرت أن حياتها كان من الممكن أن تنتهي وهي مغشيًّا عليها عند هذه الشجرة فأنقذها أستاذها وأنقذ طفلها، فشعرت أن الله يشير إليها بطريقة ما أن هذا ما يريدها أن تفعل في حياتها المتبقية.

تمسك غفران بيد الجدة:

– الذي فعله الأستاذ لفاطمة فعلته أنتِ معي جدتي، شكرًا لكِ.

– لا تشكريني بعد الآن، هذا علم يجب أن نعمل به، سيحاسبنا الله عليه إذا لم نفعل.

– هل تسمحين لي جدتي أن أكتب عنكِ عندما أعود إلى لندن؟

– يمكنك أن تكتبي ما تشائين يا بنيتي.

– لقد حدثت لي أشياء كثيرة منذ قدومي إلى العراق، أنتِ الجزء الأفضل بها، وسوف تعود العراق لأن هناك أشخاصًا مثلك يستحقون أن تعود من أجلهم، لقد ألهمتني قصة الجدة فاطمة حقًّا.

ثم تنظر إلى الجدة بثقة:

– جدتي لا تحزني، لن أدع الإعلام يرسم الصورة التي يريد ويطمس الحقائق، سأكون الإعلام البديل الذي يظهر الحقيقة حتى وإن كلفني ذلك حياتي.

تربت أم هاشم على كتف غفران بحنان:

– حفظك الله يا بنيتي ووفقك إلى ما يحبه ويرضاه.

يُفتح باب المترل ويدخل خالد فتسأله غفران بقلق:

– هل وجدته؟

يرد خالد:

– لا لم أجده بعد، ولكني وجدت صحيفة تُدعى (فريدة) أخبرتني أنها تعرفك وأعطتني رقم هاتفها وعنوان الفندق الذي تُقيم به لتتواصلي معها.

– حسنًا، فلنذهب إليها الآن.

***

(بعد أن سيطرت القوات الأمريكية على الناصرية واتجهت شمالًا ناحية بغداد،لاقت القوات الأمريكية مقاومة عراقية في أثناء استيلائها على كربلاء، والرئيس العراقي صدام حسين يدعو العراقيين إلى المقاومة لتخفيف الضغط على بغداد).

تنهي فريدة تقريرها عن اليوم السابع عشر عن الحرب الدائرة بين أمريكا والعراق لعدد من الوكالات العالمية، فلقد اعتقدت الوكالة الصحفية التي تعمل بها أن تغطيتها للحرب معادية للسياسة الأمريكية خصوصًا بعد أن ظهرت في مقابلة بالتلفزيون العراقي فقامت بإقالتها.

هي تعودت أن تدفع ضريبة ما تراه صائبًا،هذا لا يشغل بالها كثيرًا،فهي تعمل مراسلةً حرة لعدد كبير من الوكالات العالمية، ولكن ما يثير قلقها شيء آخر، إنه عمرو لقد مَرَّ الآن خمسة أيام ولم يتصل بها ليطمئن عليها، ربما كانت تلتمس له العذر فيما سبق، ولكن كيف

وهي في ذلك الوضع من الخطورة، لم يشغله خاطره أنه ربما يكون قد أصابها مكروه ما، هي عادة لا تُلقي بالًا لتلك التفاصيل الصغيرة وربما هذا ما أثار إعجابه بها، ولكن الأمر الآن يتعدى ذلك، هو لا يحبها بالتأكيد.

ابتسمت في ألم عندما تذكرت كيف قابلت العديد من الرجال الذين كانوا على استعداد أن يقدموا لها أي شيء في سبيل إرضائها، وكانت تردهم بكل برود حتى أطلقوا عليها (امرأة الثلج)، وما أخذ الثلج في الذوبان عندما قابلت عمرو، عمرو هو أول رجل أحبته بصدق، ولكن المرء حقًّا يعشق ما يُتعبه.

أفاقت من خواطرها على جرس هاتفها ليأتي لها صوت غفران متلهفًا تريد أن تقابلها الآن، فتخبرها أنها سوف تنتظرها في بهو الفندق.

تأتي غفران مسرعة إلى الفندق لتجد فريدة في انتظارها وتشعر أنه من الجيد وجود فريدة معها في تلك الأجواء العصيبة، فعلى الرغم من كل شيء هي ليست غريبة عنها تمامًا ويمكن أن تساعدها حقًّا في رحلة بحثها عن علي.

تصافح فريدة غفران بودٍّ:

– حمد لله على سلامتك.

تبتسم غفران وتنظر إلى خالد:

– الحمد لله، الفضل يرجع إلى خالد وجدته.

ثم تنقل بصرها إلى فريدة وتكمل بقلق واضح:

– هل لديك أي معلومات عن علي؟

– لا أعرف شيئًا عنه للأسف، منذ الحادث حاولت أن أبحث عن معلومات للوصول إليكما،ولكن ظروف الحرب منعتني من ذلك حتى قابلت خالدًا مصادفة وأخبرني عنكِ.

تبكي غفران:

– أخشى أن يكون قد أصابه مكروه، لقد مَرَّ أكثر من أسبوعين.

تربت فريدة على كتفها بحنان:

– لا تقلقي، لعل الله يطمئنك قريبًا ونحن سنفعل كل ما بوسعنا للعثور عليه.

تجفف غفران دموعها:

– هل يمكن أن أستعير هاتفك لأجري اتصالًا بالصحيفة التي نعمل بها لأطمئنهم، ولعلهم يمكنهم مساعدتنا في العثور عليه.

– بالطبع، تفضلي.

***

لم تشعر غفران بالعجز وقلة الحيلة مثلما شعرت به الآن، فهي تجلس وحيدة بغرفة في فندق ببغداد وأصوات الصواريخ تدوي عاليًا وأكثر شخص أحبها في عداد المفقودين الآن، ولا تعرف حتى كيف يمكنها العثور عليه.

تشعر أنها سوف تنهار،هي لا تستطيع أن تتحمل هذا الكم المفزع من الضغط العصبي، تخرج من غرفتها لتجد نفسها تطرق غرفة فريدة.

تنظر إلى فريدة:

– لقد شعرتُ أنني سوف أُجنُّ من القلق إن بقيت وحدي في الغرفة.

– كلنا لديه هذا الشعور، أقصى آمالنا أن نخرج من هذه الحرب سالمين جسديًّا ونفسيًّا.

– هل عملك يسير شكل جيد؟

– لقد تمت إقالتي من الوكالة التي كنتُ أعمل بها.

بدهشة:

– يا الله، ومن الذي يجرؤ أن يقيلك، فأنت فريدة سعد الدين أفضل الصحفيين وأجرؤهم في لندن.

تبتسم فريدة:

– ربما لهذا السبب، لا تقلقي أنا د ادة تلك الأمور، ولكن يبدو غفران أنكِ تحبين عليًا كثيرًا.

تبتسم غفران:

– نعم، لقد أدركتُ هذا مؤخرًا للأسف.

– وما الحب يا غفران؟ أظنُّ أنني ما زلتُ لم أعرفه بعد؟

– كيف لا تعرفينه، ألم تخبريني من قبل عن حبك لعمرو؟!

– لا أعرف، لقد اختلط عليَّ الأمر، عمرو يزيد من حيرتي كثيرًا.

– لا عليك، من المؤكد أنه يحبك، ولكنه منشغل بأموره الخاصة بشكل محبط، ولكن هل تعلمين يا فريدة، عندما اعترف بحبه لي، شعرت وقتها أنني أُشبِه عمرو كثيرًا، لقد كان عليًّا من أصدقائي المقربين، يُساعدني كثيرًا، كان يهتم لمشكلاتي ودائمًا يكون حاضرًا من أجلي في كل شيء، وأنا ماذا فعلت بالمقابل؟ كنتُ أعيشُ حياتي كلها بأنانية مفرطة، أهتمُّ بمشكلاتي فقط، كنتُ أفعل مع عليَّ ما كان يفعله عمرو معي، لا بد أنني كنت محبطة جدًّا لعلي، ولكن هل تدركين ماذا فعل علي في المقابل؟ انتظرني،ربما هذا ما يجب عليك فعله، أن تنتظري عمرو.

– وهل تظنين أن الانتظار سوف يأتي بنتيجة؟! أنا أشعر بالخيبة، غفران، وهو شعور حقًّا مُخزٍ.

– أنتِ تحبينه فريدة، وفي الحب شقاء مستمر.

***

منذ الصباح الباكر وغفران تُجري اتصالاتها بكل مَن تعرفه داخل العراق وخارجه لعله يساعدها على العثور على (علي)، والأحداث تتصاعد في سرعة رهيبة فهناك عربات عسكرية أمريكية تدخل القصر الجمهوري في بغداد، حيث دارت معارك ضارية، ومحمد سعيد الصحاف وزير الإعلام العراقي ينفي سقوط القصر، وها هي القوات البريطانية تعلن انتهاء المعركة للسيطرة على البصرة، وفريدة خرجت منذ الصباح ولا تعلم أين ذهبت هي أيضًا؟!

تطرق إلى سمعها صوت طرقات على باب الغرفة، فإذا بها فريدة تخبرها أنها أخيرًا عرفت مكان علي، وأنه يتلقى علاجه في المستشفى منذ الحادث، ولكن اسمه كان غير مُدرج بسجلات المشفى مما صعّب العثور عليه.

كادت غفران يُغشى عليها من الفرح، عندما علمت أن (عليًّا) ما زال على قيد الحياة.

بلهفة نظرت غفران إلى فريدة:

- إذًا هيا بنا نذهب لرؤيته.

- لن نستطيع أن نفعل ذلك الآن، فلقد تأخر الوقت كثيرًا، والذهاب الآن يحمل خطرًا كبيرًا، سنذهب إليه في الصباح إن شاء الله.

- ولكني أريدُ أن أطمئنَّ عليه الآن.

- لا تقلقي، هو بخير وسوف تطمئنين عليه في الغد، ولكن الآن من المستحيل أن نفعل ذلك.

تُذعن غفران للأمر في أسًى وتدعو أن تمر تلك الساعات الطويلة بسرعة حتى يتسنى لها رؤية علي والاطمئنان عليه.

***

ها قد مر أسبوعان منذ دخول (علي) إلى المستشفى، لم يشعر (علي) بكل هذه الأيام، فقط أسبوع واحد منها، فالأسبوع الأول الذي دخل فيه إلى المستشفى كان في غيبوبة تامة بسبب كمية الدماء التي فقدها وأجروا له عملية إزالة الطحال الذي تأثر نتيجة القصف، هو الآن يحاول أن يستعيد عافيته، ما زالت كُليته لا تعمل بشكل جيد، فَقد أثّر النزيف أيضًا في بعض أجهزة جسده، ولكن الأطباء يؤكدون له أن الأمور ستسير على ما يُرام، فحالته تحسنت كثيرًا عن حالته التي دخل بها إلى المستشفى، ولكن ليست حالته هي كل ما

يقلقه كانت، هناك أمور كثيرة تثير قلقه، أهمها على الإطلاق غفران، هو لا يعرف ما الذي حدث لها؟ هو يعلم أنها ليست بخير، فلو كانت كذلك لما انتظرت كل هذه المدة دون أن تأتي لتطمئن عليه، وهو فَقَدَ كل شيء معه يوم القصف،الكاميرا و ناتفه المحمول، لا يستطيع العثور عليها، وليس بحالة جيدة ليبحث عنها، منذ أن أفاقَ من غيبوبته ولم يجدها وهو يتساءل كل يوم ترى أين هي غفران؟

تدخل غفران مسرعة إلى الحجرة التي يوجد بها (علي) بالمستشفى فتجده يرقد على سرير ووجهه شاحب وقد نقص كثيرًا من وزنه.

تتجه غفران إلى السرير الذي يوجد به علي وهي تبكي:

– علي، ما أخبارك؟ هل أنت بخير؟

يبتسم علي بسعادة بالغة ويحاول أن ينهض:

– يا إلهي، غفران! هل أنتِ بخير، لقد كنتُ قلقًا جدًّا عليكِ؟

تبكي غفران:

– أنا بخير يا علي، لقد خشيتُ أن يكون قد حدث لك مكروه.

– أنا الذي تساءلت عن سِرِّ اختفائك كثيرًا، أخبريني:

ماذا حدث معك؟

– لقد أُصبتُ بجرح في قدمي وأصابتني حمى شديدة واستعدت وعيي، فإذا بي أجدني في بيت جدة خالد، شخصية ملهمة يا علي، سوف أعرفك إليها قريبًا، لقد اهتمت بي كما لم يهتم بي أحدٌ من قبل، ولكن أخبرني أنت: ما الذي حدث لك؟

– أنا ما أتذكره أنني كنت أمسك بالكاميرا وأحاول تصوير بعض الأماكن ولا أدري ما الذي حدث بعدها، إلا بعد أسبوع من مجيئي إلى هنا، لقد كنتُ غائبًا عند الوعي أسبوعًا كاملًا.

– يا الله! أسبوعًا كاملًا غائبًا عن الوعي؟

– نعم، تخيلي هذا، وعلمتُ أنهم في ذلك الأسبوع قاموا بإزالة الطحال، يبدو أنني نزفت كمية كبيرة من الدماء، فقد أُصيبت بعض أجهزة الجسم بالصدمة ولكنها تتحسن تدريجيًا الآن.

– يا الله، لا بد أنك عانيت كثيرًا، ما رأي الأطباء عن حالتك؟

– يقولون إنني الآن أفضل كثيرًا.

– الحمد لله، أنا آسفة حقًّا لأنني تأخرتُ في الوصول إليك كل هذا الوقت، كان يجب أن أكون بجانبك.

يمسك بيديها ويربت عليها بحنان:

– أنا الذي يجب أن يعتذر، غفران، لأني لم أستطِع حمايتك كما ينبغي، فلتغفري لي تقصيري.

تبكي غفران:

– أنا أحبك، علي، أحبُّك حقًّا، كنت أخشى كثيرًا فقدانك.

يبتسم علي، ويمدُّ يديه يمسح دموع غفران:

– هل كان يجب عليَّ أن أتعرض للموت حتى تعترفي أخيرًا بحبك لي!

تبتسم غفران:

– نعم ربما كان يجب عليك ذلك.

ثم تكمل:

– فريدة ترسل إليك تحياها، كانت سوف تأتي معي الآن، ولكنها تقوم ببعض الأعمال، وسوف تمرُّ عليك في وقت لاحق.

– هل هي بخير؟

– نعم، فريدة إنسانة رائعة، هي مَن ساعدتني على العثور عليك.

يقطع حديثهما رنين جرس هاتفها، فإذا به خالد يطمئنُّ أنها بخير بعد أن جاء في الانباء أنه تم ضرب الفندق الذي كانت تُقيم به هي وفريدة وتم مقتل بعض الصحفيين وإصابتهم جراء القصف.

وهنا شحب لونها ولم تستطع حتى أن تكمل حديثها مع خالد، فهي تعلم أن فريدة لم تبرح الفندق بعد.

لندن، أبريل 2003

انطلق صوت مضيفة الطيران تُنبِّه الجميع بأن يتأكدوا من ربط حزام الأمان جيدًا استعدادًا للهبوط.

أخذت غفران تفكر: أي هبوط قد حدث لها هناك، فهي الآن مُحمَّلة بذاكرة مليئة بالحنين والأوجاع، فلقد أصابتها تلك المهمة بشروخ لن يعالجها الزمن وإن طال، فكيف يمحو الزمن قصة سقوط بغداد؟ وكيف يمحو الزمن جثة فريدة التي تقبع أسفل الطائرة. فريدة التي استُشهدت وهي تحاول أن تبين للعالم أن للحقيقة ثمنًا، يجب أنه يدفعه من يصر عليها، لتعطيها درسًا: كيف يجب أن تدافع عن مبادئها وما تؤمن به؟ ولكن على الرغم من كل تلك الأوجاع فقد أعادت لها الحرب تقدير القيمة الحقيقية للأشياء، قيمة الوطن وإن بخل، قيمة

الصداقة وإن قصر أمدها، قيمة الحب وإن جاء متأخرًا، لكنها للأسف تعلمت بالفقدان، وما أقسى أن تدرك الأمور بتلك الطريقة!

ثم نظرت إلى (علي) الذي كان يجلس بجوارها وشعرت أنه من المنصف أن يكون هناك جانب مضيء في وسط هذا الكمِّ من الظلام.

في صالة المطار، تلمح غفران عمرو الذي كان في انتظار وصول جثة فريدة، تســتأذن (عليًّا) لتتقدم نحوه.

- أهلًا، عمرو.

- أهلًا، غفران، كيف حالك؟

- بخير، البقاء لله، وإن كنت أُعزي نفسي قبلك.

- الله يصبرنا على فراقها.

تدمع عينيها:

- عمرو، هل تعرف أن فريدة كانت تحبُّك كثيرًا وأنك الوحيد الذي أحبته بهذا الصدق.

يومئ عمرو برأسه في حزن.

تكمل غفران:

- هل تعرف: ماذا فعلت أنت بالمقابل؟

- لقد تجاهلتَها، أهملتَها مثل قطعة أثاث؛ لأنك تظنُّ أنها ملك لك، هل تعرف كم عانت فريدة من ذلك؟ ربما عانت أكثر ما عانيت أنا، لأنها أحبتك أكثر مني بكثير، ومن يحبُّ يشقى أكثر، أنت لديك قدرة رائعة يا عمرو على انتقاء ضحاياك،ولكن لديك قدرة أكبر على أن تخسرهم بمنتهى السهولة.

- غفران، ليس هناك جدوى من ذلك الحديث الآن.

بتحدٍّ ترد غفران:

- ومن الذي يحدد جدوى الحديث،أنت!هل سماعك لهذا يغضبك إلى ذلك الحد؟

على أي حال كنتُ أريد أن أخبرك أني أغفر لك كل شيء.

بدهشة يقول عمرو:

- ماذا؟

- أنا أغفر لك كل شيء، عمرو، أغفر لك كل الخيبات التي سببتها لي، كل الدموع التي ذرفتُها، كل الوعود التي أخلفتَها، أغفر لك كل الأحلام التي تحطَّمت من أجلك، كل الألم، والأكاذيب، أغفر لك الإهمال والأنانية، أغفرُ لك كل شيء.

- لكنني...

تقاطعه غفران:

-- أنا لا أطلب منك أعذارًا يا عمرو،فأنا حقًّا أريد أن أفعل ذلك، أريد أن أتحرر منك وأن أبدأ حياة جديدة غير مُحمَّلة بألم الماضي، فأنا أغفر لنفسي أيضًا كل القرارات الخاطئة التي اتخذتُها يومًا، نظرتي الضيقة للحياة والأيام التي أضعتُها في البكاء على أحزان الأمس، أريدُ أن أفعلُ ذلك حقًّا.

ثم تتَّجه غفران إلى (علي) الذي ينتظرها.

تبتسم غفران قائلة:

– هل يمكن لنا أن نبدأ بداية جديدة.

– ومن أين نبدأ؟

تمسك غفران بذراعه:

– من ذلك الحديث الذي دار بيننا في بغداد، عندما قلتُ لك:

– أنا خائفة يا علي.

تتسع ابتسامة علي:

– سأظلّ بجانبك دومًا.

تضع غفران يديها ناحية قلبها وهي تبتسم:

– أشعر بوجع يعتصر قلبي.

يمسك على يديها:

– سنعبر تلك المحنة معًا.

– لن تتحمل وجعي.

تُشير له غفران بأصبعها محذرة.

يقبل على يديها:

– غفران، أنا أحبُّك.

– وأنا أحبُّك يا علي، أحبُّك جدًّا.

***





هل يمكن أن نموت من الوجع؟!

صار الحزنُ باديًا على ملامحها عندما تذكَّرت ما حدث البارحة وكيف أنها التقت بـ(عمرو) زوجها السابق مصادفة في الحفل الذي أقامته الصحيفة التي تعمل بها وكيف دعاها ليعرفها إلى زوجته (فريدة).

لم تعرف ما الذي أصابها حينها، شعرت أنها فَقَدَت قدرتها على التنفس، توقفت وأحست أن هناك يدًا تسللت بداخلها فنزعت قلبها من مكمنه.

هي وعمرو انفصلا منذ مدة ليست بالقصيرة، ولكنها لم تَعْتَدْ فَقْدَه حتى الآن، لم تزل تحبه بالرغم من كل ما حدث، هو من تخلى عنها بأنانيته المفرطة وحبه لذاته المبالغ فيه، يحسب أن الكون كله يدور من أجله، وهي لم تعد تتحمل الدوران كثيرًا حوله، لم تعرف أن تتقن هذا الدور.

Cover by #ahz_art





دار اكتب للنشر والتوزيع

12 ش عبد الهادي الطحان من ش الشيخ منصور المرج الغربية – القاهرة – مصر

01111947957

E-mail : daroktob1@yahoo.com